

ميخائيل بسللوس من خلال كتابه التاريخ الزمنى

الدكتور . . رافت عبد الحميد

كتب نيقتاس الخونياتى^(١) Nicetas Choniates يقول : « يعد التاريخ اعظم ابداع خلفه الاغريق » ، واذا كان هذا القول يصنق حقيقة على المؤرخين الكلاسيك وعلى رأسهم هرودوت Herodotus وثوكيديدس Thucydides واكسنوفون Xenophon وغيرهم ، فانه ينسحب ايضا دون ريب على العصر البيزنطى نتيجة أمرين رئيسيين : فالمؤرخون البيزنطيون حاولوا جهد فكرهم أن يحاكو تماما كتابات أولئك المؤرخين الاغريق ، واذا كانوا لم يحققوا في ذلك النجاح كله ، الا أنهم في الوقت ذاته تركوا عددا من الاعمال يرقى الى الدرجة الاولى بين الكتابات التاريخية ، تدل دلالة واضحة على مجتمع بلغ مرتبة عالية من الثقافة والرقى الفكرى . الأمر الثانى ، إن الله — حسب التصور الكنسى — عندما ارتضى أن يظهر نفسه متجسدا في الزمان والمكان ، قدس مسرى التاريخ ، واستطاع العالم المسيحى أن يصبح انعكاسا على أرض « مدينة السماء »^(٢) Civitas Caelestis

(١) هو نيقتاس اكوميناتس N. Acominatus عرفَ باسم الخونياتى نسبة الى مدينة خوناي Chonae في فريجيا Phrygia بآسيا الصغرى ، وهو يحتل مكانة مرموقة بين مؤرخى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وضع مؤلفا باسم « التاريخ » Historia في عشرين كتابا يتناول الفترة الممتدة من اعتلاء يوحنا كومنينوس العرش حتى الايام الاولى للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (١١١٨ — ١٢٠٦) ويعتبر « تاريخ » نيقتاس عملا فريدا لا يدانيه آخر في المعلومات التى يقدمها عن عهدى مانويل واندرونيكوس وأسرة انجلوس والحملة الصليبية الرابعة واحتلال القسطنطينية . وقد مات في مدينة نيقية سنة ١٢١٠ . انظر : العالم البيزنطى تأليف ج.م. هسى ، ترجمة الباحث ، حاشية ٢ ص ١٩٠ — ١٩١

(٢) انظر المصدر السابق ص ٣٨١

ومن هذا المفهوم ، ولما كان البيزنطيون على معرفة تامة بماضيهم البعيد ، وتأثر تفكيرهم بهذه المعرفة عن الاستمرار التاريخي ، فقد برعوا دون جدال في ميدان الكتابة التاريخية ، ومن ثم فانه خلال الامتداد الطويل للعصر البيزنطي طوال ما يقرب من أحد عشر قرنا من الزمان ، من الرابع حتى الخامس عشر ، بما في ذلك العصر البيزنطي المتقدم (من الرابع الى السابع) ، لا يكاد يخلو قرن من هذه القرون من واحد أو أكثر من المؤرخين أو كتاب التاريخ الزمني ، الذين دونوا أحداث هذه الحقبة التاريخية . بقدرة كبير من الدقة والموضوعية (١) : واتساقا مع الأمر الثاني ، نجد أن عددا ليس بالقليل من المؤرخين البيزنطيين ، كانوا إما من بين

(١) من أشهر هؤلاء المؤرخين وكتاب الزمنات : يوساب Eusebius الفيساري والمؤرخ الوثني أميانوس ماركيانوس A. Marcellinus في القرن الرابع ، وسقراط Socrates وسوزومين Sozomenos وثيرودوريت Theodoretus والمؤرخ الوثني زوسيم Zosimus في القرن الخامس . بينما يشهد القرن السادس مؤرخين أمثال بروكوبيوس Procopius القيساري وأجاثياس Agathias ومناندر Menander ثم نجد ثيوفيلاكيت Theophylactus في أواخر القرن السادس وأوائل السابع وكذا أفاجريوس Evagrius السوري ويوحنا مالالاس Malalas ويوحنا الأفسوسي . وفي القرن السابع كان هناك جورج البسیدی ويوحنا الأنطاكي . على حين نجد جورج سينكلوس Syncellus وثيروفانس المعترف Theophanes خلال الفترة اللايقونية زمن الإيزوريين والعموريين (٧١٧ — ٨٦٧) . أما على عهد المقدونيين فقد ظهر يواصفت جنسيوس Josephus Genesius وقسطنطين الرودي وقسطنطين كفالاس C. Kephalas وليو الشماس وليو النحوي وثيرودوسيوس الميتمني ، بينما سجلت أحداث الفترة الواقعة بين وفاة باسل الثاني سنة ١٠٢٥ وقبيل اعتلاء الكسيوس كومنينوس العرش سنة ١٠٨١ ، على يد المؤرخ ميخائيل بسللوس Psellus وفي القرن الثاني عشر تميزت أنا كومنا Anna Comnena وزوجها نيقفور بريانيوس N. Bryennius ويوحنا كيناموس Cinnamus ونيقتاس الخونيائي . وحتى الفترة التي شهدت قيام الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦١) لم تعدم بيزنطة مؤرخيها ، فظهر في القرن الثالث عشر جورج القبرصي ، وفي إمبراطورية نيقية ذاع صيت نيقفور بلميدس Blemmydes أما الفترة الأخيرة من عمر الإمبراطورية وهي التي شغلها أسرة البيلولوجوس Palaeologus فقد حظيت الإمبراطورية بعدد من المؤرخين مثل باخيمرس Pachymers ونيقفور كالليستوس N. Kallistus ونيقفور جريجور ويوحنا كانتاكوزينوس Cantacuzenus وفرانتز Phrantzes ودوكاس Ducas ولاونيكوس Laonikos

رجال الدين أو الرهبان . وقد اصطبغت كتابات بعضهم الى حد ما ، خاصة في الفترة الاولى بالصيغة الدينية في معالجة الأمور انسياسية (١) ، وان كان الآخرون وبمرور الزمن قد راحوا يعالجون مادتهم التاريخية بمنهاج موضوعي جاد .

ولعله مما يثير الانتباه أن فترات الانحلال السياسي والتآكل التي كانت تتعرض لها الامبراطورية ، لم يكن يصحبها بالضرورة في الوقت ذاته انحطاط ثقافي ، بل ربما على العكس من ذلك كانت هذه الفترات تشهد إلى حد ليس بالقليل نهضات ثقافية في مجال الفكر والأدب . ويتمثل هذا بصورة جلية خلال الأزمة الطاحنة التي احدثت بالامبراطورية بعد أن اجتاحتها جيوش الفرس والآفار من الشرق والغرب في أخريات القرن السادس وأوليات السابع ولم يبق من الامبراطورية الا القسطنطينية فقط . وحدث هذا أيضا خلال نصف القرن الذي أعقب وفاة باسل الثاني عام ١٠٢٥ . بل إن الكارثة التي حلت بالامبراطورية سنة ١٢٠٤ لم تحل دون قيام مثل هذه النهضة الثقافية في امبراطورية نيقية على يد أسرة لاسكاريس **Lascaris** وقد عبر ثيودور الثاني لاسكاريس عن ذلك قائلا : « مهما تكن متطلبات انحراب والدفاع ، فانه من الأمور الحيوية أن نجد الوقت لنفرس بذور بستاننا » ويعود هذا في المقام الاول الى اعتزاز البيزنطيين بتراثهم اليوناني — الروماني ، وإلى ادراكهم الواعي للدور الحضاري الذي يؤديه في عالم البحر المتوسط ، بالإضافة الى أنهم يجدون في الابداع الفكري والأدبي عوضا عن الضياع السياسي الذي يعانونه ابان تلك الفترات . فجامعة القسطنطينية

(١) من أوضح الأمثلة على ذلك ما كتبه لانتانيوس **Lactantius** ورسالته عن « موت المضطهدين » **De mortibus persecutorum** ويوساب أسقف قيسارية فلسطين في كتابه « التاريخ الكنسي » **Historia ecclesiastica** و « حياة قسطنطين » **Vita Constantini** وعلى الرغم من أن المؤرخ سوزومين اشتغل بالحماية إلا أن دراسته للقانون لم تمنعه من اصفاء الصيغة الدينية والتأثر بالأساطير والرؤى والمعجزات في كتابه « التاريخ الكنسي » **Historia Ecclesiastica** انظر : **Ante nicene fathers, ed. by A. Roberts & J. Donaldson (VII. 301 — 322) = (P.L. VII 2, 189 — 276) ; Eusebius : Historia ecclesiastica : Nicene Fathers, 1. 2., 73 — 387 (P.G. XX. 45—906) ; Eusebius; Vita Constantini, Nicene Fathers, 1.2. 473 — 580 P.G. xx. 905 — 1232) ; Sozomenos : Historia Ecclesiastica, Nicene Fathers, II. 2, 239 — 427 (P. G. LXVII 823 — 1630).**

أعيد تنظيمها ثانية عام ١٠٥٤ على يد قسطنطين التاسع مونوماخوس
Constantinus Monomachos بينما حرصت اسرة لاسكاريس على أن
تجذب الى نيقية ، التي أضحت عاصمة اقوى « الامبراطوريات البيزنطية
الثلاث » (١) بعد سنة ١٢٠٤ ، اكبر عدد من العلماء والدارسين في مختلف
فروع المعرفة الانسانية .

ولقد تركت كل واحدة من هذه الفترات التي سقناها ، اثرها الواضح
والمباشر على كتابات بل وشخصيات من أرخوا لها ، فجورج البيسيدى
الذى عاش أوائل القرن السابع ، وكان من أشهر شعراء عصره ، جاءت
كتاباته التاريخية كلها قصيدا نظم في مدح الامبراطور هرقل Heraclius
انذى استطاع أن يعيد الى الامبراطورية اقاليمها بعد ضياع . أما جورج
القبرصى ونيقفور بلميدس اللذان عايشا تفكك الامبراطورية بعد سقوط
القسطنطينية عام ١٢٠٤ ، فقد رفعنا مملكة نيقية الى عليين ، وجعلنا منها
« اثينا الجديدة » و « مدينة العلم » (٢) واذا كانت أزمة نهاية القرن
السادس وأوائل السابع قد هزت أركان الامبراطورية وهى بعد في عنفوان قوتها
وشبابها ، واذا كانت جحافل اللاتين ، جند الحملة الصليبية الرابعة ،
قد أطاحوا بها في أوائل القرن الثالث عشر وهى في طريق هرمها ، فان
الفترة التى تمتد الى نصف قرن وينيف بين عامى ١٠٢٥ — ١٠٨١ تمثل منعطفًا
خطيرا في تاريخ الامبراطورية ، اذ كانت خاتمة عهد طويل زاهر في مجلته
امتد حوالى سبعة قرون ، وبداية النهاية في طريق انحلال وسقوط استمر

(١) بسقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ انقسمت الامبراطورية الى مملكتين
هما ابيروس EPIRUS في الشمال الغربى من بلاد اليونان ويحكمها أحد أفراد
اسرة أنجلوس ، ومملكة نيقية في الشمال الغربى من آسيا الصغرى وعلى
عرشها ثيودور لاسكاريس، هذا بالإضافة الى مملكة طرابيزون Trebizones
على الشواطىء الجنوبية الشرقية للبحر الاسود تحت سيادة أحد فروع اسرة
كومنين . ومن الجدير بالذكر أن هذه المملكة الاخيرة قد قامت بمساعدة جورجيا
قبل سقوط القسطنطينية .

(٢) انظر :

Vasiliev : A history of the Byzantine empire, I. pp. 230 — 231 ; II
512, 548 — 551.

أربعة قرون ، اذا استثنينا تلك الفترة التى حكمت خلالها الأسرة الكومننية
(١٠٨١ - ١١٨٥) .

فقبل عام ١٠٢٥ ولدة تقترب من مائة وخمسين عاما ، كانت الامبراطورية
البيزنطية تعيش ازهى عصورها ، او ما عرف بالعصر الذهبى ، تحت سيادة
الأسرة المقدونية ، فامتدت حدودها شمالا لتضم جزءا كبيرا من الاراضى
القوقازية وارمينية ، ووصلت جيوشها فى الجنوب الى تخوم بيت المقدس
واخضعت لسلطانها فى الغرب الملكة البلغارية لتجعل منها ولاية بيزنطية ،
وتدعمت باستمرار سلطات الامبراطور السياسية ، وازدادت كفاءة الجهاز
الادارى ولعبت الدبلوماسية البيزنطية دورها كاملا بمهارة فائقة ، ونشطت
الحركة الفكرية والأدبية والفنون خاصة فى بداية عهد هذه الأسرة ،
وساهم بعض اباطرتها فى هذا الميدان مثل ليو السادس . Leo VI

الحكيم وقسطنطين السابع Constantinus VII واستمر الاهتمام
بالبناحية التشريعية . وازدهر الاقتصاد البيزنطى واستقرت قيمة العملة
الذهبية النوميذما والبيزنط ، وحطمت سطوة كبار الملاك خاصة من منطقة
آسيا الصغرى وأضحت الامبراطورية مرهوبة الجانب عند كل الجيران .

غير انه بوفاة باسل الثانى ، تبدلت الأمور فجأة فى الامبراطورية ، اذ
اعتلى عرشها بين عامى ١٠٢٥ - ١٠٨١ أربعة عشر امبراطورا ، افتقدوا
فيما بينهم المقدرة العسكرية والكفاية الادارية وقوة الشخصية التى تمتع
بها اباطرة المقدونيين او الازوريين من قبل ، وحرمت الامبراطورية من القادة
العسكريين الكفاء الذين حكموا كباطرة شركاء اغلب فترات العصر المقدونى ،
فأهمل الجيش واستنزفت الخزائنة وخفضت قيمة العملة ، فاهتزت الثقة
فى الاقتصاد وانفرت الولايات من سكانها ، وانتهاز الأعداء المحيطون بها
لمصلحة هذا الضعف المفاجئ ، غراح النورمان يهددونها من الغرب ، والغز Usez

والكومان Cumans والبشناق Patzinaks من الشمال ، والأتراك السلاجقة
من الشرق ، وعادت من جديد الى ازدياد سطوة الملاك الكبار ، وقوى
نفوذ البيروقراطية المدنية فى العاصمة . خلاصة القول كما يعبر عنه بدقة
سوتر E. R. A. Sewter « ان عددا كبيرا من مواطنى الامبراطورية

لم يكونوا يدركون ما الذى يحدث بالفعل ، بل لم يكونوا يعلمون أن القرن
الحادى عشر يمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخهم الطويل . ولكن من بين هؤلاء

جميعا كان هناك رجل واحد استطاع ان يدرك بصورة جزئية قسمات الانحلال في قدر الامبراطورية ، ذلكم هو ميخائيل بسللوس (١) .

من هنا ندرك الاهمية الحقيقية لهذه الفترة في تاريخ الامبراطورية ، فمنذ وفاة باسل الثانى لم تستطع بيزنطة أن تعود ثانية الى سابق قوتها وازدهارها، ورغم ان الأسرة الكومنية قد أعادت اليها شيئا من حياة ، الا أن ذلك كان بريقا خادعا سرعان ما راحت الامبراطورية بعده تستحث الخطى كارهة الى الانحلال والسقوط . وكانت الأحداث التى وقعت على امتداد نصف القرن هذا ، وظاهرة الضعف العام الذى تردى فيه الأباطرة انذاك ، ارهاصا دليويا بما حدث عام ١٢٠٤ ثم عام ١٤٥٣ . ومن ثم أيضا ندرك الاهمية الكبيرة لهذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن وهو « التاريخ انزمنى » Chronographia فهو يتناول أحداث هذه الفترة فيما يتعلق بانناحية الداخلية صفة خاصة بالتفصيل الدقيق .

ويضاعف من هذه الاهمية أن مؤلفه وهو ميخائيل بسللوس Michael Psellus قد عايش هذه الأحداث بنفسه منذ بدايتها تقريبا ، ويعترف هو بذلك في قوله : « ان باسل الثانى مات في الوقت الذى كنت فيه طفلا (سبع سنوات) ، بينما أنهى قسطنطين الثامن حياته (١٠٢٨) بعد أن بدأت دراستى الأولية مباشرة ... وقد رأيت رومانوس (الثالث) Romanus III. في آخر أيامه (١٠٣٤) وكنت حينئذ في السادسة عشرة من عمرى » (٢) بل ان بسللوس قد شارك بنفسه في صنع الكثير من أحداث هذه الفترة ، فقد كان على مقربة من القصر منذ حداثة سنه ، وعمل في خدمة تسعة من الأباطرة الذين عاصروهم ابتداء بميخائيل الخامس وحتى ميخائيل السابع، وترقى في المناصب حتى أصبح الوزير الاول المسئول في الامبراطورية (٣) .

(١) انظر : Fourteen Byzantine rulers, introd. P. 12.

(٢) chron. III, 1, 25 وند بسللوس عام ١٠١٨ .

(٣) يذكر بسللوس انه شاهد بنفسه مراسم الدفن الخاصة برومانوس الثالث (١٠٣٤) ، ويقول أن وجه رومانوس كان شاحبا تماما بشبه الى حد كبير أولئك الذين يتجرعون السم Chron. IV. 4 رغم أنه يؤكد قبل ذلك انه لا يستطيع الجزم بصدق الشائعات التى كانت ذائعة آنذاك والقائلة بأن

ومما لا شك فيه أن استمرار بسللوس في ممارسة العمل الإداري والسياسي قرابة أربعين سنة باستثناء تلك الفترة القصيرة جدا التي حاول أن يسلك فيها درب أنرهبانية ، وسط الأخطار التي كانت تتهدد الدوبه في الداخل والخارج ، ومع اختلاف الأهواء وتضارب المصالح وتنافر الطبائع لدى هذا العدد من الأباطرة الذين عمل في خدمتهم ، والذين يمتلكون السلطة الكاملة في ظل المونارخية البيزنطية ، ليدل دلالة واضحة على شخصية بسللوس ، وتفهمه لطبيعة العصر الذي يعيشه ، وإدراكه الواعي لمدى إمكانيات وقدرات هؤلاء الحكام ، وفي الوقت ذاته يفصح عن ذكائه وفطنته . لقد راح يصف نفسه قائلا : « ... إذا كان النيل يهب المصريين الحياة فان لسانى للأرواح غذاء . فهناك من يدعونى « ضياء الحكمة » وآخر يرى فى « الكوكب الدرى » وثالث يخلع على اسمى آيات التمجيد والفخر » !

كان بسللوس يعيش فترة من التقلب والاضطراب والانحلال فى الامبراطورية ، مصحوبة بتغيرات واضحة وجوهريه فى العرش ، كانت تغنى بالضرورة تغيرا فى السياسة البيزنطية ، وقد نجح بسللوس فى أن يظهر

الامبراطورة زوى Zoe ابنة قسطنطين الثامن وزوج رومانوس قد دست له السم ليخلولها الجو مع عشيقها وزوجها المقبل ميخائيل الرابع Chron III. 26 ثم نجد بسللوس يدافع دفاعا مجيدا عن ميخائيل الرابع هذا ويقول انه لا سبيل الى الشك فيما يقول : « لانى رايت بعينى راسى وسمعت بأذنى » ، وهذا يدل على صلته بالبلاط ولما يتجاوز العشرين من عمره . وليس ببعيد ان يكون بسللوس قد ارتبط بصورة ما بالقصر قبل أن يصبح سكرتيرا لميخائيل الخامس Chron V. 27 وهذا نقف عليه من وصفه الرائع للثورة العارمة التى اندلعت فى القسطنطينية عندما علم أهلها بنبا نفى زوى على يد ابنها بالتبنى الامبراطور ميخائيل الخامس (١٠٤١ — ١٠٤٢) ، ويذكر انه امتطى صهوة جواده وقصد الى قلب العاصمة ليشهد هذه الأحداث عن كثب Chron. V. 28 — 30 ، ثم صاحب أحد القادة العسكريين الى حيث يختبئ ميخائيل وعمه فى دير ستودايوس بعد أن اضطرهما العارمة الى الفرار ونصبوا ثيودورا الابنة الثانية لقسطنطين الثامن امبراطورة وكيف انه (بسللوس) راح يؤنب الامبراطور وعمه على مسلكهما تجاه زوى Chron. V. 40 — 43 ثم يؤكد عند حديثه عن العهد المشترك لزوى وثيودورا أن روايته سوف تكون مصدرية تماما ونتيجة لمعرفة شخصية جدا Chron. V. 10.

مقدرة فائقة في تكييف نفسه لتساير هذه الأحداث « ولم يتردد في استخدام أساليب المداينة والتملق والرشوة في سبيل الحفاظ على مركزه وسلطاته ، ومن ثم فانه ليس بمفدورنا القول انه كان صاحب خلق لا تشوبه شائبة ، وان كان في ذلك لا يختلف عن كثير من أبناء عصره ذاك المضطرب » (١) . ويكاد بسللوس يعطينا من اقامة الحجة عليه فيقدم الدليل على ذلك مبررا سلوك الأباطرة المتقلب ، مدافعا بذلك عن نفسه ضمنا بقوله .

« ان الكثيرين ممن نذروا أنفسهم لتدوين تاريخ الأباطرة قد وقفوا مشدوهين أمام تلك الظاهرة القائلة بأن احدا من الأباطرة لم يحاول أن يحافظ على سمعته في كل الأمور من أن تعتريها شائبة . فقد كسب بعضهم الكثير من الثناء لحسن مسلكهم في بواكير حياتهم ، وآخرون نالوا ذلك في أخريات سنى عمرهم ، وبينما أثر نفر منهم حياة الدعة والنعيم ، أقحم غيرهم نفسه على الفلسفة ، وحتى ينلمسوا فقط مبادئها ، فقد اختاروا أن يحيا وأن يموتوا مشوشى الفكر مضطربى العقل . أما أنا فلا أجد في هذا التقلب ما يدعو للغرابة أو يسترعى الانتباه ، بل على العكس من ذلك فانه لا شك يبدو شيئا نكرا أن يظل انسان ما على وتيرة واحدة . ربما نعثر على انسان يتبع طيلة حياته ربما واحدا لا يتغير منذ ولادته وحتى يدركه الموت ، وان كان عسيرا أن نجد الكثير على هذا النحو أرايت انى البحر كم هى قصيرة لحظات السكينة التى تظلل صفحة وجهه ، سرعان ما تضربها الأمواج فتلهب ظهرها ، شأن رياح الشمال أو أية عاصفة مدمرة تبدد ذلك السكون . هذه أشياء اعتادتها مرارا عيناى » (٢) .

والحقيقة أن اية قراءة « للتاريخ الزمنى » حتى ولو كانت سريعة تعطينا صورة واضحة عن شخصية بسللوس السياسية ودوره في الحياة العامة وفى تسيير امور الدولة انى حد التدخل فى بعض الأحيان فى اختيار الأباطرة أو اقضاء آخرين عن العرش ، أو تدبير المؤامرات السياسية ضد نفر ثالث وهكذا .

Vasiliev. op. cit. I. p. 368. (١)

Chron. VI. 27 (٢)

فهو قد عمل سكرتيرا للامبراطور ميخائيل الخامس وانه بالتبني الامبراطورة زوى ثم سرعان ما انقلب عليه عندما ثارت القسطنطينية ضده حال سماعها بنبا نفى زوى ، ولا يبعد أن يكون بسللوس قد شارك الجموع سخطها وثورتها بعد أن ايقن أن الأمور قد افلقت من يدى ميخائيل ، خاصة وأنه يتهمه بالتسلط والاستبداد والانصراف عن شئون الدولة الى الاهتمام بالتخلص من زوى (١) ، وبعد أن رأى الامبراطور وعمه يهربان الى دير ستودىوس للاحتباء به ، حرص على أن يحتفظ بمكانته لدى الحاكم الجديد ، ولهذا فانه بدلا من الاستجابة لتوسلات ميخائيل وعمه لانقاذهما من أيدي الجموع الغاضبة ، راح امام هؤلاء الثائرين يؤنبهما على مسلكهما تجاه زوى ، وكيف انهما تأمرا سويا لاقصائهما. وقد صدقت توقعاته وحظى بالرضا من جانب الأختين زوى وثيودورا بعد أن اعتليتا العرش سنة ١٠٤٢ امبراطورتين شريكتين (٢) .

وهو قد وقف الجزء الأكبر من مؤلفه وهو الكتاب السادس للحديث عن « امبراطوره المفضل » و « بطل تاريخه » قسطنطين التاسع (٣) وخلع عليه آيات التمجيد والاطراء بشكل لم ينله امبراطور ممن أدوا للامبراطورية خدمات تنكسف الى جوارها شمس مونوماخوس هذا ، فهو كما يحدث عنه « الامبراطور الوحيد بين خلفاء باسل الذى حكم فترة طويلة (١٠٤٢ — ١٠٥٥) ولأن هناك الكثير فعلا مما يستحق أن يحكى عنه ... كان من الطبيعى أن تحدونى الرغبة فى أن يكون امبراطورى المفضل نموذجا يحتذى حتى ولو كان مثل هذا المديح والثناء مستحيلا بالنسبة للآخرين جميعهم » (٤) ويمضى بسللوس فى التدله بامبراطوره الى حد القول الصريح :

Ibid. V. 17, 21 — 22.

(١)

(٢) حاشية ٣ ص ١٥٦ — ١٥٧ . وقد تحدث بسللوس فى وصف دقيق يفيض بالتشفى عن النهاية المفجعة التى آل اليها كل من ميخائيل الخامس وعمه، حيث أطبقت عليهما الجموع وراحت تسخر منهما وتهزأ بعد اخراجهما من الدير، وكيف أقدم الثائرون على فقء عيني كل منهما. انظر Chron. V. 38 — 50.

Chron VI. 28 — 71

(٣)

Ibid. 14, 28, 30, 190.

(٤)

« لم تكن رغبتي في البداية أن أكتب تاريخاً ، ولا أن أكتسب سمعة الصديق في هذا الميدان ، كل ما كنت أريده فقط هو أن أنظم مديحاً على شرف هذا الحاكم ، ولا ريب أننا أستطيع أن أقدم العديد من الأسباب التي تدفعني الى ذلك ، فلقد قدم الامبراطور الكثير . والمادح — كما نعلم — يتغاضى فيمن يمتدحه عن كل نقیصة ويظهر للعيان فضائله ، فاذا كانت حياة الممدوح غاية في السوء ، بحث مادحه عن فضيلة واحدة فقط أقدم عليها ليقرض فيها قصيدة ، بل إن كل مذمة في يد الكاتب الحاذق يمكن أن تؤول بصورة ما لتصبح تبريراً لهذا المديح (١) . وبعد أن يؤكد ما يجب أن يكون عليه المؤرخ من نزاهة القاضي يتساءل : « . . . هل هناك من هو أحق منى بامتداح هذا الامبراطور بالذات ؟ إن الصعوبة التي تواجهني في كتابتي الآن هي كيف يمكن أن أعرض للتاريخ الحق ، وأعطيه (قسطنطين) في ذات الوقت فضله الذي يستحق ؟ اذا لم يكن منصفاً في كتابة الحقيقة التاريخية ، فاني قد حفظت على الأقل سمعته في جانب واحد ، ذلك أنني اذا ما سعيت جاهداً ومحضت بدقة أعماله ، حتى وإن كان ظاهر بعضها السوء ، واذا كنا مازلنا نرى ضوء فضله ينعكس على أعماله الطيبة ، واذا ما وجدنا أن أعماله الخيرة ترجح كفة سوء الأعمال ، فإن قسطنطين بالتالي يصبح بكل تأكيد انساناً عظيماً يفوق كل أولئك الأباطرة الذين يتطرق الشك الى كل ما قيل في مدحهم ، يغفرك ظاهر هذا المديح ، وحقيقته جوفاء . ترى . . . هل هناك انسان فاق الجميع ، أو ترى هل هناك امبراطور وضع على رأسه تاج الثناء على كل أعماله دون نقیصة واحدة (٢) . اننا اذا ما نظرنا الى العظماء من الرجال الذين ذاع صيتهم في مجال الكلمة أو العمل ، مثل الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر وأوكتافيانوس وبيروس Phrrhus الإبيروسي (٣) وأبا مينونيداس

Ibid. VI. 161 (١)

Ibid. VI. 162 (٢)

(٣) هو ملك إبيروس (٣١٩ — ٢٧٢ ق.م) جرت انتصاراته العسكرية مجرى الامثال بحيث شاع ما يعرف باسم « النصر البيروي » Pyrrhic victory ترك عدداً من المذكرات والمؤلفات عن فن الحرب والخطط العسكرية كانت مصدراً للكثيرين من بعده ومن بينهم شيشرون نفسه .

Epaminondas الطبيعى (١) واجسلاوس Agesilaus الاسبرطى ، ولن نتحدث عن أولئك الذين حققوا شهرة ضئيلة خلعها عليهم المعجبون بهم . عندما ننظر الى هؤلاء فاننا لا نجد فى حياتهم توازنا بين الفضيلة والرذيلة كما نعلم من ترجماتهم ولكنهم فى مجموعهم انحدروا بعض الشيء نحو الأسوأ . ماذا يمكن أن يقال إذن عن أولئك الذين يحاكونهم اذا ما بدوا أدنى منهم ؟ لا أعنى فى كل مفاهيم الفضيلة ، بل تلك الخلال والنواحي التى فاق فيها هؤلاء العظماء أقرانهم « (٢) .

ثم يتحدث بسانزوس من بعد عن قسطنطين ويقارن بينه وبينهم ويرفعه مكانا عليا ، ويتفوق به عليهم جميعا فى كثير من النواحي ، وإن كان لا يستطيع انكار أنه كان أقل منهم شجاعة ، وهو فى هذه المقارنة يتحدث عن صفاته الخاصة دون الحديث عن منجزات له . ويتغنى بجماله ويصفه بأنه يشبه فى الجمال أخيل Achilles بل إن جمال أخيل ، كان شيئا أضفته عليه الأسطورة ، أما جمال قسطنطين فهو ما حبه به الطبيعة حقا حتى وصلت به حد الكمال « ! ويطنب فى تبيان رفته ودمائه خلقه وكرمه وعذب حديثه وسماحته إزاء أعدائه وحلمه مع خصومه (٣) ، ويفض الطرف تماما عن معالجة أمور الدولة ، « ذلك أنه نغما يتعلق بالشئون العامة غانى سوف أتركها لكثير من الكتاب الذين يرغبون فى تدوين هذه الأعمال « (٤) .

ولكن ما الذى يقوله التاريخ حقا عن قسطنطين التاسع ؟

لقد تمكن فى أوائل عهده من أن يضم للإمبراطورية ما تبقى من أرمينية بما فيها عاصمتها آنى Ani لكن الإمبراطورية سرعان ما فقدتها على يد

(١) أحد قادة طيبة العسكريين (٤١٨ — ٣٦٢ ق.م.) كان لخطته العسكرية أثرها الكبير فى انتصار طيبة على جيرانها فى موقعة ليوكترا Leuctra عام ٣٧١ ق.م. تدور شهرته أساسا حول براعته فى وضع الخطط العسكرية بالإضافة الى ثقافته الواسعة .

(٢) Chron. VI. 163

(٣) Ibid. VI. 164 — 176, 126

(٤) Ibid. 167

الأتراك السلاجقة عندما أقدم قسطنطين على سحب قواته منها ليواجه بها الثورة التي أشعلها ضده ليو التورنيقي (١) Leo Tornikios بينما سمح لعناصر البشناق Patzinaks بالاستقرار في بعض الأراضي البلغارية ، وتنازل لهم عن ثلاث قلاع حربية على شاطئ الدانوب في مقابل تعهدهم بالدفاع عن هذه المناطق ضد هجمات الأمراء الروس . غير أن البشناق أخذوا يتدفقون الى الداخل دون مقاومة حتى نزلوا بالقرب من ادرنة Hadrianopolis بينما وصل بعض منهم الى أسوار العاصمة . وإذا كان قسطنطين قد تمكن في البداية من انزال بعض الضربات القوية بهم ، الا أنهم أوقعوا بجيشه مذبحه مروعة فيما بعد ، اضطر الامبراطور ازاءها أن يبتاع السلام منهم بثمن باهظ ، وكان لهباته التي اغدقها عليهم والتي تفوق حد الوصف أثرها في تعهدهم بحفظ السلام في أقاليمهم التي يقيمون فيها شمالي البلقان (٢) ، وليس أدل على ما وصلت اليه أمور الدولة في الخارج من التردى مما يذكره مؤرخنا من أن الامبراطور أرسل الى ملوك وحكام الدول المجاورة رسائل «تفيض وتنضح بالخضوع والتدنى بصورة لا يمكن أن تليق بامبراطور ، قاصدا بذلك كسب ودهم ، وكان من بين هؤلاء خليفة مصر ، وقد أمرني بالكتابة اليه لما يعلمه عنى من حب للوطن والرومان ، وأوعز الى أن أضفى عليه (قسطنطين) صفات الانضاع وأن أخلع على المصريين سمات المجد والرفعة » (٣) .

أما في الداخل فقد أخذت الأمور تسير من سوء الى أسوأ ، فقد راح قسطنطين وزوجه زوى يستنزفان الخزانة العامة بأسراف بالغ بلغ حد السفه ، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ما حدث عند بناء كنيسة سان جورج وهدمها واعادة بنائها مرة ثانية (٤) . وبسللوس يبدى من هذا استياء معلقا

Id. 98 — 124

(١)

Vasiliev, op. cit. I. pp. 325 — 326

(٢)

Chron. VI. 189 — 190

(٣)

(٤) يذكر بسللوس أن قسطنطين أقدم على هدم البناء الاصلى لكنيسة سان جورج وأقام على اطلاله أخرى جديدة ، ويضيف أنه سيطر عليه جنون العظمة والطموح في أن يقيم بناء يفوق كل الابنية التي سبقت عهده بحيث لا يمكن

« ان أحق تطرف أقدم عليه الامبراطور هو بناء كنيسة سان جورج الشهيد . لقد كان الذهب يتدفق من الخزانة العامة كتيار جارف هادر من منابع لا ينضب لها معين » (١) . بل أنه يستفتح تاريخه لقسطنطين بقوله : « انه لم يكن يعصى لزوى امرا ركذا ثيودورا ، كان يعطيها من الأموال كل ما تطلبانه ، حتى أصبح الانفاق والبذخ امرا عاديا (٢) . ولا يخفى حسرته فيكتب بكل الألم « لقد أصبحت الثروة الطائلة التي خلفها باسل الثانى العوبة فى أيدي هؤلاء النسوة ... وهكذا فان ثروتنا كلها قد تبددت وبعثرت هباء ، بعضها داخل أسوار المدينة ، وبعضها حمل الى البرابرة ... لقد كانت انفسن الرومانية تلقى بأى ميناء مراسيها ثم تعود محملة بالثروات التي تذهب بالآلالباب ، حتى أصبحت الامبراطورية الرومانية موضع حسد من الجميع ومحط أنظارهم ، أما الآن فياحسرتنا بعد أن ضاعت أراضيها والثروات (٣) ويصف الامبراطورية فى أوائل عهد قسطنطين بأنها « كانت مشرفة على الموت وان كانت أنفاسها مازالت تتردد ، وقد ترك الداء حتى استفحل واستشرى ، ولم يشغل الامبراطور نفسه كثيرا بهذه المسألة ، بل أخذ يبحث عن إعادة احياء الامبراطورية بالاغراق فى السررات . لقد كان يعد جسم الامبراطورية لآلاف الأمراض التي كان حتما مقضيا أن تفتك بها فى سنوات آتية » (٤) .

وتمشيا مع هذه السياسة الخرقاء ، وفى محاولة لعلاج الأمور ، وجه قسطنطين ضربة قاصمة للاقتصاد البيزنطى عندما أقدم على تخفيض قيمة

لاى منها أن يدانيه . ويحدثنا عن عظمة البناء وروعة الزينة وما أنفق فى سبيل ذلك من أموال طائلة . غير أن الامر لم يقف عند هذا الحد ، فقد أمر قسطنطين بتسوية هذا البناء الفخم بالأرض لانه وجده لا يتفق مع ما كان يطمح اليه . ومن ثم أعيد البناء مرة أخرى من جديد . ويعود بسلولوس الى وصف هذا البناء الأخير فى صورة تذهب بالآلالباب . انظر : Chron. VI. 185—187

Chron. VI. 185

(١)

Ibid. 49

(٢)

Ibid. 63, 153 — 154

(٣)

Ibid. 48

(٤)

العملة « النوميذما » بصورة واضحة ، وذلك لمواجهة العجز المالى الكبير الناجم عن بذخ البلاط المتزايد والانفاق الحكومى ، بالإضافة الى نقص إيرادات الضرائب بسبب ضعف سلطان الحكومة المركزية وازدياد سطوة كبار الملاك . ولاشك أن اجراء على هذه الشاكلة كان كفيلا بتخريب الاقتصاد البيزنطى ، فقد كان من الأمور المعروفة أن المركز المرموق الذى بلغته القسطنطينية فى عالم التجارة الدولية يعود فى الدرجة الأولى الى الثقة فى قيمة عملتها الذهبية (١) .

لم يكن أى من هذه الأمور على بسللوس بخاف ، هذا على حد تعبيره (٢) ولكنه ظل حريصا على اكتساب رضا الامبراطور والفوز بثقته ، وقد سجل ذلك صراحة ودون مواربة بقوله : « حرصت بكل عناية على أن أكيف نفسى حسب مزاجه فى كل حين ، فلقد كان رجلا سريع التقلب ولا يستقر على أمر !! (٣) ورغم النقد اللاذع الذى يوجهه بسللوس للامبراطور قسطنطين ، فإنه لابد للمرء أن يتساءل عن الدوافع التى حدثت بمؤرخنا الى سلوك هذا السبيل التقريظى تجاه قسطنطين ..

الذى لا مراد فيه أن بسللوس كان يدين لقسطنطين التاسع بفضل رفعه مكانا عليا ، حقيقة انه كان لديه من الأسباب ما يؤهله كى يتبوأ هذه المكانة المرموقة ، خاصة بقدرته البلاغية وفصاحته ورجاحة عقله ، وهذه أمور سوف ننالوها فى حينها ، ولكن هذا لا يمنع أن يعزى الى قسطنطين فضل السماح لهذه المواهب الكثيرة أن تصقل وأن تصل بصاحبها الى ما يبتغى . وبسللوس يقر هذه الحقيقة : « لقد التحقت بخدمة الامبراطور فور اعتلائه العرش ، وعملت معه طيلة عهده ، ورقيت الى مرتبة السناطور ، وعهد الى بمعظم الأعمال ذات الاهمية الخاصة . وهكذا فليس هناك شئ لم أعرفه ، ولم يخف على عمل علنى

(١) انظر للباحث الترجمة العربية لكتاب « العالم البيزنطى » ص ١٧٠ —

Chron. VI, 14,46

Ibid 197

أو دبلوماسية سرية» (١) فإذا أضفنا إلى هذا أن بسللوس كان ينتمى لأب من بين التجار متوسطى الحال ، وأن كان يعود في أصله لجذور نبيلة يحمل بعض أفراد منها مرتبة القنصلية ولقب البطريق ، ويعيش حياة ميسورة معتدلة ، وأن كان يسارها محدودا لدرجة لم تتح له أن يسير في خطى التعلم بصورة منتظمة ، وأنه أفاد من موت أخته التى تكبره حيث استخدم صداقتها في الانفاق على دراسته ، ولما كان هذا المبلغ ضئيلا إلى حد كبير ، فقد اضطر أن يعمل لبعض الوقت قاضيا اكليروسيا في أناتوليا Anatolia . ونتيجة لذلك كله كان محتملا أن يقتفى الابن أثر أبيه في التجارة حيث كان من الممكن أن تدرى مواهبه الرباح . إلا أن أمه التى تنتمى في نفس الوقت لأصل متواضع ، بذلت في سبيل مواصلة تعليمه كل ما تمتلك من جهد ومال (٢) ، إذا وضعنا هذا كله في اعتبارنا أدركنا إلى أى حد كان تقريب قسطنطين له وإثاره إياه وضمه إلى بلاطه ، معروفا أسداه إليه ولم يكن من العسير عليه أن ينكره ، فقد كتب يقول : « لسوف تؤرقنى النفس اللوامة إذا لم انتهز أية فرصة لامتداحه ، ولسوف أصبح للجميل منكرا وغير متوازن مع نفسى ، إذا لم أحدث ولو قليلا عن نعمه التى أسبغها على ظاهرة وباطنة . فقد مد يد العون لى فتحسنت منى الأحوال » (٣) . وبمقدورنا أن ندرك في الوقت ذاته المغزى الحقيقى وراء الاحترام والتقدير الذى يخلعه بسللوس في كتابه على الأباطرة الذين ينتمون لأصول نبيلة ، والاحتقار والازدراء الذى يسم به من هم الاصل دونهم (٤) .

على أنه من أهم الأمور التى أقدم عليها قسطنطين التاسع في عهده هو إعادة تنظيم جامعة القسطنطينية في عام ١٠٥٤ ، وكانت قد أدت دورها بكفاءة عالية منذ صدر قرار تنظيمها في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى Theodosius II عام ٤٢٥ ، وأن كانت قد تعرضت لفترات من الاهتزاز الثقافى خاصة عندما كانت

Ibid. 14

(١)

C.M.H. IV. 2. P. 85 و ايضا Fourteen Byzantine rulers, (٢)

Chron. VI. 23

(٣)

Ibid. IV. 9, 26, 27; V. 26; VI. 15; VII. 79; VII. CONST. (٤)

X. 6; VII, Roman. IV. I.

الامبراطورية تولى جهودها شطر الاستعدادات العسكرية لمواجهة الأخطار الخارجية ، مما دفع بارداس Bardas خال الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧) الى محاولة تنظيمها ثانية (١) . واذا كانت الجامعة قد أضحت في عهد المقدونيين الاوائل مركزا جذب اليه خيرة العقول آنذاك (٢) ، الا أن الفترة التي تسلط فيها العسكريون مثل نيقفور فوقاس Nicephorus II. Phocas ويوحنا تزيمسكس John Tzimiscas أودت بالثقافة الى الدرك الأدنى (٣) ، فلما جاء باسل الثاني الى السلطة أبدى ازدياداً للثقافة والمثقفين ، وصرف اهتمامه الى النواحي الحربية والادارية ، ولكن هذا لم يمنع وجود نشاط علمي خافت تمثل في جهود فردية قام بها بعض الدارسين آنئذ (٤) ولهذا فان قسطنطين التاسع ، رغبة منه في أن يضم بلاطه مجموعة من المساعدين الأذكياء ، قرر إعادة تنظيم جامعة القسطنطينية . ومما تجدر الإشارة اليه أن بسللوس انتهاز فرصة قربته للامبراطور واعجاب هذا به ، فسعى لديه جاهداً من أجل الاقدام على ذلك العمل ، ولم يكن بسللوس وحده في هذا ، بل شاركه صديقه يوحنا اكسيفيلينوس J. Xiphilinus . ومن ثم فان الجامعة شهدت نهضة فكرية جديدة تمثلت في كيتين للقانون والفلسفة أو الدراسات الانسانية ، ترأس الاولى اكسيفيلينوس واختير بسللوس للثانية رئيساً .

هذه ناحية أخرى من أيادي قسطنطين البيضاء على بسللوس ، كان لابد أن يعدها مكرمة لها اثرها ، خاصة وأنه كان يفضل دائماً أن يعرف بين الجميع بأنه « الفيلسوف » أو « الحكيم » (٥) . ولكن الذي يدعو للدهشة حقاً ، أنه خلال هذا الجزء الكبير من مؤلفه والذي وقفه على « امبراطوره المفضل » لم يشر بكلمة واحدة الى مسألة إعادة تنظيم الجامعة واختياره استاذاً لكرسى الفلسفة بها . وقد يكون ذلك مقبولا لو أنه لم يتحدث عن نفسه في تاريخه هذا ، ولكنه كثيراً

(١) انظر Baynes & Moss : Byzantium, pp. 216 — 217

(٢) انظر Vasíliev, op. cit. I.p. 296

(٣) Baynes & moss. op. cit. p. 217

(٤) Chron. I. 29.

(٥) Ibid. VI. 197; VII. Michael. VI. 26, 81.

جدا ما كان يقطع تتابع الأحداث التاريخية ليحدث عن نفسه (١) ، وكل ما ذكره عن ذلك لا يتعدى السطور الثلاثة التي تقول : « على الرغم من أن قسطنطين لم يظهر في يوم ما تقدما في دراسة الأدب ، ولم يكن أبدا خطيبا مفوها ، إلا أنه مع ذلك أظهر اعجابا كبيرا بذوى الفصاحة والبلاغة والذين كان جلهم قد بلغ من الكبر عتيا ، وأرسل يستقدمهم الى البلاط من جميع أنحاء الامبراطورية » (٢) والذي يزيد الأمر حيرة أن مؤلف بسلولوس هذا يكاد يقتصر فقط على معالجة السياسة الداخلية والأمور الخاصة « جدا » بالبلاط ، ولا يعرج على الشؤون الخارجية الا فيما ندر ، ولهذا كان متوقعا أن يهدنا بسلولوس بوثيقة تاريخية تعد على جانب كبير من الأهمية وهي قرار إعادة تنظيم الجامعة خاصة كلية الفلسفة التي كان رئيسا لها (٣) . وقد يكون ذلك راجعا الى أنه كان يريد دائما أن يحتفظ لنفسه فقط ، ودون الآخرين ، بفضل علمه هامته الثقافية ومكانته الفكرية ، في الوقت الذي لم يكن من السهل عليه اخفاء دور الأباطرة وفضلهم عليه في الترقى في مناصب الدولة الادارية والسياسية . ومن ثم فانه عندما يتعلق الأمر بشخصيته وعلمه فانه لم يكن متواضعا أبدا ، وهو يعبر عن ذلك بقوله : « لقد رضى الامبراطور (رومانوس الرابع) أن يكون تابعا لى في الأمور المتعلقة بالأدب ، أما فيما يختص بالاستراتيجية العسكرية فقد كان طموحه يدفعه كى يتفوق على » ، ويضيف « ... لقد أكسبته ثقافتى مكانة مرموقة بين رجال العلم بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى » (٤) .

ومع اعتلال صحة قسطنطين وقرب النهاية ، بدأ بسلولوس يضع نصب عينيّه تأمين مستقبله السياسى ، بعد أن بلغ هذه « المكانة المرموقة » في كنف الامبراطور وبعد أن « توطدت أواصر الصداقة بينهما الى حد كبير جدا ، وانفتح له قلب الامبراطور على مصراعيه » (٥) ، وفي سبيل ذلك ابتكر أسلوبا « هلع له مؤاد الامبراطور وارتاعت من هوله نفسه » (٦) ، ذلك أنه اتفق وصديقه يوحنا

Ibid. VII. 36 — 46

(١)

Ibid. VI. 35

(٢)

(٣) انظر العالم البيزنطى ، ص ٣٤٠ — ٣٤١

Chron. VII. Roman. IV. 7; VI. 37.

(٤)

Ibid. VI. 46.

(٥)

Ibid. 197.

(٦)

اكسيفيلينوس على ادعاء المرض والتظاهر بدنو الأجل والرغبة في أن يختتم حياتهما بصالح الأعمال ، فيطلقا الى غير رجعة دنيا الناس بحثا عن دنيا الله ، متمثلة في سلوكهما درب الرهبانية حياة . وكان على اكسيفيلينوس ، الذى كان يبدو صادقا مع نفسه ، أن يخطو الخطوة الأولى في هذا السبيل . وقد فعل ، والتمس من الامبراطور اعفائه من رئاسة كلية القانون ، فسمح له قسطنطين بذلك ، وإن كان « قد تملكه الحزن لفقدان هذا الرجل صاحب المواهب المقتدرة والكفاءة العالية » (١) .

وجاء دور بسللوس ليحذو حذو صديقه ، فلزم فراش التمارض وأرسل يستأذن الامبراطور في السماح له بأن يقضى بقية عمره زاهدا . ولعل قسطنطين أدرك أن الصديقين قد اتفقا فيما بينهما على اتخاذ هذا القرار ، ولابد أن يؤدي غيابهما عن الجامعة مرة واحدة الى ضياع جهوده التى بذلها في سبيل اعادة تنظيمها ، بالاضافة الى أنه كان يضع في بسللوس ثقته وعليه كل اعتماده في تصريف الأمور السياسية ذات الأهمية ، خاصة وأن بسللوس كان بمثابة رئيس لندىوان الانشاء لدى الامبراطور ، ومن ثم حرص بادية الامر على أن يبقى عليه ، فكتب له مبينا أنه سوف يهيء له الوسائل الناجعة ليبرأ من مرضه ، ثم أرسل اليه مندوبين يستحثونه على العدول عن قراره . غير أن بسللوس ازداد تيبها اذ وجد الامبراطور يمعن في استرضائه « ويمنيه بمستقبل عريض ويدعوه : « يا قرّة العين » .. « يا مهجة الروح » .. « يا قلبى وضيء حياتى » أتوسل اليك أن لا تدعنى اتخبط وسط دياجير الظلماء » (٢) .

ويبدو أن بسللوس قد أعجبهته نعمة التدنى هذه من جانب الامبراطور ، فازداد صلفا واصراراً على عزمه ، معلنا بينه وبين نفسه أن « صديقه الذى سبقته الى الدير يعنى لديه أكثر بكثير مما تعنيه رسائل قسطنطين ومندوبوه » . عندها أدرك الامبراطور أن تأمرا حقيقيا يجرى ضده متواطئا مع مرضه ، ولا بد أنه قد لام نفسه على هذا الدرك الذى وصل اليه في استعطافه لبسللوس ، فأقدم — حسب تعبير مؤرخنا — على « وضع الثعلب في عرين الأسد ، وأنذر بشر مستطير ، فانقسم على أن يلقي بى وبزملائى الى النار ، وأن الضر لن يصيبنى وحدى بل

Ibid. 195

Ibid. 198

(١)

(٢)

سيتمدد الى كل افراد أسرته (١) غير أن بسللوس تمادى في عناده وتلقى هذه انتهديدات — على حد قوله — برباطة جأش معتبرا اياها بشيرا بأن يجد المأوى في حماية الكنيسة ، وأقدم على حلق رأسه وارتداء لباس الرهبانية ، وحمل اسم ميخائيل وهو الاسم الرهبانى الذى عرف به في التاريخ ، والذي توارى الى جواره اسمه الحقيقى قسطنطين .

ولما كان الامبراطور قد دخل المرحلة الأخيرة من حياته ، واصبح عاجزا عن تنفيذ وعيده وكفت يداه عن التدخل الفعلى في تصريف أمور الدولة ، خاصة بعد أن سيطرت الامبراطورة تيودورا ، آخر سلالة البيت المقدونى ، على القصر بمساعدة خاصتها ، وظهر سلطانها بشكل واضح عندما أتمدت على اعتقال حاكم بلغاريا الذى كان قسطنطين قد رشحه ليكون خليفة له على عرش الامبراطورية ، فقد تلقى بسللوس رسالة من الامبراطور وانذى كان على فراش الموت « أشبه شيء بثور خامد يوشك أن يقدم للرب ذبيحة » ، تعلن عفوه عن بسللوس ورضاءه عن مسلكه وتهنئته له باختيار هذا السبيل (٢) . ولا يبعد أن يكون دافع قسطنطين الى ذلك أيضا أنه توهم صدق بسللوس في عزمه ، فتراجع عن تنفيذ تهديده له ، مفضلا بذلك إبعاده عن التدخل من بعده في أمور الدولة ، خاصة وأن الامبراطور كان قد وقف على عدة أمور أتاها بسللوس تعطيه الحق في التخلص منه ، وكان من بينها أن بسللوس يتصرف في بعض الشؤون فيما يتعلق بسياسة الدولة دون الرجوع الى الامبراطور ، بل وعصيانا لرايه في بعض الاحيان (٣) .

Ibid. 198

(١)

Ibid. 199, 202

(٢)

(٣) يذكر بسللوس أن قسطنطين كلفه بكتابة رسالة الى خليفة مصر وأوعز انيه أن يضى على (قسطنطين) صفات الاتضاع وأن يخلع على المصريين سمات المجد . ولكن بسللوس حسب قوله لم يفعل ذلك ، « بل نفذت المظهر العكسى تماما في تورية مأكرة وكان ما كتبتة يحمل معنى معينا لقسطنطين ومعنى آخر لخليفة مصر ، وحططت من شأن الأخير دون أن أفصح عن ذلك » . ويبرر بسللوس تصرفه هذا بحبه للرومان والوطن . ثم يضيف « وكان هذا هو السبب الذى دفع الامبراطور الى أن يتولى بنفسه بعد ذلك كتابة الرسائل الموجهة الى مصر » .

Chron. VI 191

وبسللوس في معرض حديثه عن الأسباب التي دفعته الى اعلان عزيمه على سلوك حياة الرهبانية يقول أن ذلك يعود الى رغبة دفينة في نفسه لممارسة هذه الحياة ولانطواء نفسه على الحب العميق للتأمل (١) . غير أنه ليس صادقا في ذلك نهاما ، فهو لم يطق صبرا على هذه الحياة الخشنة بعد أن اعتاد حياة الدعة والنعيم او الحياة « الرغدة » كما يصفها ، لهذا لم يلبث أن عاد الى دنيا الناس والحياة العامة فور وفاة قسطنطين ، في الوقت الذي ظل فيه زميله يوحنا اكسيفيلينوس راهبا حتى اختير أسقفا للقسطنطينية كارها (١٠٦٣ — ١٠٧٥) حبث كان يفضل البقاء في الدير . ولم يستطع بسللوس اخفاء الاسباب الحقيقية التي قادته الى ادعاء ذلك ، وهو فيها يلقي اللوم صراحة على الامبراطور ، حيث كان « تقلب الامبراطور هو ما دفعنى الى اختيار الحياة الرهبانية ، لقد كنا نخاف نزواته ، ومن أجل هذا فضلنا الرهبانية على حياة الدونية في البلاط ، وآثرنا هدوء الكنيسة التام على الاضطراب والفوضى داخل القصر .. لقد كان الامبراطور يقود بنفسه عربة الدولة ، ومعظم الذين ركبوها معه ألقى بهم في الطريق تحت عجلاتها ، وكان هناك أكثر من سبب يدفعنا الى الخوف من أن تهتز بنا العربة ، وعندها سوف يقذف بنا الى الأرض كغيرنا ، ذلك أننا لم نكن قد ثبتنا أقدامنا تماما .. ، لقد كانت المسألة كلها في جوهرها مجرد مقامرة » (٢) .

Chron. VI 191

(١)

Ibid. VI. 193 200 (٢)

ويضرب المثل بما كان من أمر صديقه قسطنطين ليخودس ، الذي اختاره الامبراطور لذكائه وفصاحته وخبرته للادارة المدنية ، ويحدثنا عن تحمسه للبيان ، وكيف كان خطيبا مفوها يجيد الحديث بلهجة آتنيكية خالصة . ويتمتع ببديهة حاضرة وشخصية جذابة . وكان عمق نبرات صوته مساعدا له على رقى مكانته . ولشد ما كان اعجاب الامبراطور بهذا الصوت وهو يذيع المراسيم الامبراطورية من شرفة القصر . ويقول بسللوس : « وسرعان ما حقق ليخودس مكانة راقية حيث كان يلعب الدور القيادي في الادارة المدنية ، ولكن ذلك كان دافعا لغيرة الامبراطور منه وحقدته عليه . لقد كان الامبراطور غير قادر على تقبل انتقال السلطة من يديه لشخص آخر . وكان يرغب في السيطرة على الأمور بنفسه لا من أجل أن تدار عجلة الامبراطورية بكفاءة ، بل ليفعل هو ما يشاء . ان الامبراطور لا يعدو في بعض الأحيان مجرد تمثال ، وحاول دائما أن يتبع سنة اسلافه، ولكم اغاظه تفوق وزيره » Chron. VII. 179 ويضيف أنه كثيرا ما حذر ليخودس مما يدور في نفس الامبراطور ، وانتهى الأمر بعزله ، وان كان قد رد اليه اعتباره بعد ذلك على يد الامبراطور اسحق كومنينوس سنة ١٠٥٩ حيث اختير أسقفا للقسطنطينية . انظر : Chron. VI. 180 — 181

وهكذا يعترف بسللوس صراحة بأن هناك أسبابا كثيرة تدعوه للخوف من ان يلفظه الامبراطور خارج القصر والجامعة ، قسطنطين يعلم جيدا موته من ميخائيل الخامس ، ربيض تحت يديه الدليل الكافي لادانته عند الضرورة ، وذلك من مخالفته لأوامره ، فيما يتعلق برسائل الامبراطور الى الخليفة الفاطمي في مصر (١) ، ولا يغيب عن ذهنه صلفه وعناده أمام «توسلاته» له بأن يهجر ما اعتزم الاقدام عليه من الانقطاع للحياة الديرانية . من أجل هذا حسب بسللوس بدقة كاملة حساباته ، واختار الوقت المناسب لتنفيذ ما انتواه .

لكن آمال بسللوس سرعان ما تحققت بموت قسطنطين في ١١ يناير ١٠٥٥ ، اذ تلقى وهو في الدير دعوة عاجلة من الامبراطورة ثيودورا ترجيه أن يطرح من رأسه فكرة الرهبانية ، وأن يكون الى جوارها في هذه الآونة ، وعلى الفور أسرع بسللوس يحقن للامبراطورة « رجاءها » . ومنذ هذه اللحظة ولمدة ربع قرن آت ، خطا بسللوس خطوات واسعة على سلم الترقى في المناصب السياسية ، ونجح في ذلك نجاحا يشهد له بالكفاءة والمقدرة والذكاء ، مستخدما نفس أسلوبه ومزيذا من دهاء . لقد أصبح المستشار الاول لثيودورا التي كانت لا تصدر عن رأى الا بعد استشارته ، كما عهد اليه « بكتابة رسائلها التي تعد على جانب كبير من الأهمية والسرية حتى وقسطنطين بعد حي » (٢) . ورغم هذه الثقة الكاملة التي أولتها ثيودورا اياه ، ولما كان يدرك انها الى الفناء تصير ، حيث كانت تناهر الآن السادسة والسبعين من عمرها ، فانه راح ينهج نفس النهج الذي وطن نفسه عليه ، فأدلى الى خاصته وأصدقائه المقربين بما يفيد عدم رضائه عن سياستها ، وتخبط سيرها في تصريف أمور الدولة (٣) ، حتى يضمن لنفسه في بلاط الحاكم الجديد مكانة .

استقر رأى أصدقاء ثيودورا والمقربين على اختيار ميخائيل (السادس) (١٠٥٦ — ١٠٥٧) ذلك الشيخ الفاني ليكون خليفة لها ، فقد رأوا فيه أفضل من يحقق لهم مصالحهم ، وكان بسللوس أحد حاضري الاجتماع « وشاهد بعيني

(١) راجع حاشية ٣ ص ١٦٩

Chron. VI. Theod. 13

(٢)

Ibid. 16

(٣)

رأسه وسمع بأذنيه كل ما دار « (١) ، ولم يذكر أنه أبدى اعتراضه أو موافقته وانما أثر الصمت التام ، ولكنه برز فجأة ليصبح على رأس خاصة الامبراطور « الذى كان ينظر اليه كما لو كان ابنا متبنى ، ويعتبره منذ زمن طويل أخلص ندمائه » (٢) ، اذ ما لبث الامبراطور أن عقد مؤتمرا ضم مستشاريه لبحث أمر الثورة التى أشعلها اسحق كومنينوس فى آسيا الصغرى مطالبا بالعرش . وراح كل يعرض آراءه ، ولكن ميخائيل السادس لم يلتفت لأحد منهم . ثم قام بسللوس من بينهم ليسدى للامبراطور النصيح الذى يتلخص فى التصدى لأستف القسطنطينية العنيد ميخائيل كرويلاريوس *M. Cerularius* حتى يتفادى نفوذه القوى ، وارسال سفارة الى خصمه للوقوف على قوته ومحاولة مد أجل المفاوضات حتى يمكن تحقيق الاقتراح الثالث الذى يتضمن انشاء قوة عسكرية ضخمة (٣) . ولما كان الامبراطور لا يجزؤ على المساس بسلطان بطريك القسطنطينية ، فقد رفض الشق الأول من الاقتراح وارتضى الشقين الآخرين . ويعلق بسللوس على ذلك بقوله : « ان هذا كان كفيلا بالاطاحة بعرشه » (٤) .

وحدث ما لم يكن يتوقعه بسللوس ، فقد وقع اختيار ميخائيل السادس عليه ليكون على رأس وفد المفاوضات الى اسحاق كومنينوس ، لما يعرفه عنه من « فصاحة وقدرة على المناقشة يمكنه بها استمالة ذلك الثائر واعلان ولاءه للامبراطور » . وهنا أدرك — بسللوس أنه أوقع نفسه فى مأزق كان لابد أن يتخلص منه ، فهو تد وطن نفسه على أن يمسك العصا من وسطها ، فاذا ما نجح ميخائيل فى القضاء على خصمه ، فلا بد أن الامبراطور سوف يحفظ له نضل نصحه ، واذا ما تغلب اسحق ، فقد حفظ لنفسه خط الرجعة عندما أدلى برأيه فى اختيار أسلوب المفاوضات بدلا من الحرب بين ميخائيل واسحق والتى أشار بها بعض خاصة ميخائيل . ويبدو أن بسللوس لم يكون صادقا فى نصحه للامبراطور مع كل هذا ، فقد أصدر عليه حكمه منذ اللحظة التى تم اختياره فيها للعرش بقوله : « ان أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه لا يصلح للحكم بقدر ما

Ibid. 19 — 21

(١)

Ibid. VII. 9

(٢)

Ibid. VII. 10

(٣)

Ibid. II.

(٤)

هو صالح لأن يكون محكوما» (١) ثم هو يقدر تماما أن النصر لن يكون من نصيب ميخائيل ، ويعلن ذلك في وجهه دون موارد : « ما الذى يمكن أن تجديه الفصاحة والقدرة على المناقشة مع شخص يشعر أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يضحي حاكما للامبراطورية ؟ وكيف يقبل انسان أمسى النصر في جيبه أن يكون مرؤوسا للامبراطور ؟ » (٢) .

وهاهى الأحداث تعيد نفسها من جديد ، فقد أخذ ميخائيل السادس يخاطب بسللوس قائلا : « كان الغرض الأساسى من دراساتك المستمرة أن تحقق النجاح في البيان والبلاغة المقنعة ، غير أنه في حالة صديق لك يعانى سوء انحط ، أو بالأحرى سيدك (٣) فانك لا تبدى حراكا في مساعدتنا ، وعندما أصبحت امبراطورا مضت علاقتى معك دون تغيير ، ورحت اتحدث اليك كما تعودت دائما ، وقد رحبت بك وتمثلتلك أمانى دائما ، وكنت اظن أنك تبادلنى نفس الشعور ولسوف أسير في طريقي الذى رسمته لى المقادير ، ولكن تأكد أن اليوم الذى تلام فيه لا ريب آت ، وسوف تلتقى على تنكرك لسيدك وصديقك ما تستأهل من جزاء » (٤) .

لم يجد بسللوس مفرا من الامثال لأمر خلقه بنفسه لنفسه ، ولم تجد محاولاته المتكررة للتخلص من هذا « الشرف » الذى خلقه عليه الامبراطور ، ولما لم يجد بدا من الانصياع لرغائب ميخائيل ، عمل على أن يحتفظ لنفسه بالأمان عند كل من المعسكرين ، فبين لميخائيل أنه لم يتردد في قبول « شرف » هذه المهمة الا خشية الحقد الذى سوف يعتمل في صدور الكثيرين ، والغيرة التى ستمتلك عليهم نفوسهم ، وأعلن استعدادده للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقه اذا ما صحبه احد أعضاء السناتو . وحتى يسد عليه الامبراطور كل منافذ التملص ترك له حرية الاختيار ، فاصطحب معه ثيودور الوبس، Theodorus Alopus وصديقه Constantinus Lichudes انهميم قسطنطين ليخودس (٥) .

Ibid. VI. Theod. 20

(١)

Ibid. VII. 15, 16

(٢)

(٣) يعترض بسللوس على استخدام كلمة « سيدك » ويمول : « ألا غليغفر الله لى استخدام هذه الكلمة » .

Chron. VII. 16

(٤)

(٥) Ibid. 17 19 راجع حاشية ٢ ص ١٧٠.

وقد لعب بسللوس في هذه الأحداث دورا خطيرا لا نبالغ اذا قلنا انه بلغ حد التآمر ضد الجالس على العرش ، فقد اتفق مع زميله على أن يقترحوا على اسحق كومنونوس أن يضع على رأسه التاج ويستخدم الأشعرة الامبراطورية، على أن يدين بالولا لميخائيل السادس . ويصور بسللوس مدى فرحة اسحق بهذا الاقتراح ومدى اعجابه بشخصيته لأنه هو الذي تحدث نيابة عن زميله باعتباره « فيلسوفا وحكيما » . وكيف أن اسحق شيعهم بالاحترام والتقدير ، وخصه دونهم بأسمى آيات التكريم(١) . فلما حمل الوفد لميخائيل هذه الأنباء حمد لهم صنيعهم وان كان قد أمرهم بالعودة الى اسحق كي يطلبوا اليه أن لا يعلن هذا الاتفاق مخافة اثاره غضب السناتو وهياج الشعب(٢) وبينما هم في معسكر اسحق في نيقوميديا للمرة الثانية اذ جاءتهم الأنباء تترى بأن الثورة قد اندلعت في العاصمة ، وان السناتو قد أجبر ميخائيل السادس على الاعتزال واضطره أن يقضى بقية عمره راهبا ، وأنه (السناتو) قد أعلن اختيار اسحق كومنونوس خليفة له على العرش وأرسل في استدعائه ، وأن المدينة قد أخذت زخرفها وازينت انتظارا لمقدم العاهل الجديد(٣) .

غير انه لا يمكن قبول هذه الرواية على علاتها هكذا ودون مناقشة ؟ اذ كيف يمكن لبسللوس أن يقترح على اسحق أن يظل مواطنا عاديا تابعا للامبراطور مع الاحتفاظ بالتاج والأشعرة الامبراطورية ، في الوقت الذي يصرح فيه أن « فصاحته لن تجدى نفعا مع شخص يعتبر نفسه قاب قوسين أو أدنى من العرش وان النصر بات في جانبه ؟ وكيف يمكن أن يسبغ اسحق على الوفد نعمه ظاهرة ، وقد جاءوا مجردونه من منصب كان يعتبره حقا له وأنه قد أصبح في قبضة يده ؟ والذي نميل اليه أن بسللوس لابد وأن يكون قد دبر مع زميله مؤامرة حيكت خيوطها بدقة للاطاحة بميخائيل واعلان اسحق امبراطورا . ودليلنا على ذلك نستقيه مما كتبه قلم بسللوس .

فهو يخلع على اسحق لقب « الامبراطور » ويناديه بذلك في زيارته الاولى والثانية لمعسكره وقبل أن يصبح اسحق امبراطورا شرعيا . وهو قد اتفق مع

Ibid. 19, 26, 31 — 32

(١)

Ibid. 33

(٢)

Ibid. 33 — 37

(٣)

زميليه — حسب روايته — أن يعلنوا مبايعتهم له ، على أن ينقلوا لميخائيل صورة التراضي أو « الحل الوسط » عند عودتهم ، حتى يمكنهم استكمال خيوط المؤامرات . فلما ألح لهم ميخائيل بخوفه من السناتو والجماهير كان ذلك إشارة البدء لهم لانتهاء مهمتهم خاصة وأن أحد ثلاثتهم وهو ثيودور الويس عضو السناتو ، وحتى يبعدوا انفسهم عن مسرح الأحداث فقد ارتضوا العودة « بأسرع ما يمكن » الى اسحق ، وتم عزل ميخائيل أثناء غيابهم في معسكر اسحق وبعد رحيلهم عن القسطنطينية بيوم واحد ، ولقد كتب بسللوس يقول عندما اتتهم أنباء الثورة وهم في كنف اسحق ، أن من قدم اليهم يحمل هذا النبأ أكد أنه ليس مجرد شائعات وأنه من الواضح أن بعض العناصر ، وذكر أسماءهم — وهنا يقول بسللوس ما نصه : « وهؤلاء نعرفهم جيدا » — قد اتفقوا مع السناتو على تنفيذ مخططهم (١) ، ثم ان السناتو والمتبردين قد وقع اختيارهم على اسحق كومننوس بالذات دون غيره ، ولا يبرر ذلك تمرده على الامبراطور ، وكان يمكن اعلان أحد رجال السناتو ، أو أحد قادة الجيش أو أحد زعماء الثائرين امبراطورا ، ولكن اختيار اسحق بالذات هو في حد ذاته دليل واضح يؤكد ما نذهب اليه . يضاف انى هذا أن بسللوس ورفيقه ظلوا في « رعاية » اسحق حتى دخل بهم العاصمة . وفوق هذا وذاك فان اسحق قد جزاهم على حسن صنيعهم معه خير الجزاء ، فما أن اعتلى العرش حتى راح يخاطب بسللوس بقوله : « انى أحمل لحديثكم كل الاعجاب والتقدير ، وانى لاعتبرك حقا أقرب أصدقائى الى قلبي ، وحتى أثبت لك صدق قولى ، فلسوف تحمل من الآن لقب « رئيس مجلس السناتو » (٢) . اما صديقه قسطنطين ليخودس فقد أنعم عليه اسحق من بعد ببطريركية القسطنطينية (٣) ولعل بسللوس كان يعرف أن ما أقدم عليه لابد وأن يعرفه الجميع يوما ما ، لهذا خط قلمه ما جرى على لسانه وهو يحاور ميخائيل السادس في البدء عندما طلب اليه رئاسة سفارته : « ... لا شك أن الحاقدين وهم كثيرون سوف يتهموننى بالخيانة اذا ما فشلت مهمتى ، وهى لا محالة فاشلة » (٤) .

Ibid. 36

(١)

Ibid. 42

(٢)

Ibid. VI. 181 ; VII. 66.

(٣)

Ibid. 17

(٤)

هكذا ارتقى بسللوس مرتبة سامية ، وحظى بلقب رئيس شرف مجلس السناتو ، وأصبح من أشد المستشارين قربا للإمبراطور والإمبراطورة التي كانت تلجأ إليه دائما في أدق المسائل وأكثرها تعقيدا ، خاصة بعد أن دهم المرض زوجها . ولم تخف احترامها له ، وتقديرها إياه باعتباره « فيلسوفا وحكيما » (١) حتى عن أقرب مستشاريها . ولم يجد بسللوس صعوبة في مصادقة رئيس مجلس السناتو الذي وقع عليه اختيار اسحق ليكون خليفة له (٢) ، وهو الذي اعتلى العرش باسم قسطنطين العاشر (١٠٥٩ — ١٠٦٧) .

ولم يتخل بسللوس عن دوره القيادي في رفع قسطنطين إلى العرش ، فاسحق كومنينوس حسب رواية بسللوس ، رفض ترشيح أخيه يوحنا الذي يعده مؤرخنا « أعظم نبيل لقيه طيلة عمره » (٣) ، أو ابنته أو زوجه كاترين Catherine البلغارية (٤) . فلما اختار قسطنطين خلفا له ، لم يجرؤ أحد من المستشارين — والرواية هنا لبسللوس — أو كبار القادة العسكريين أو رجال السناتو على تأييد هذا الاقتراح أو شجبه ، وأحجموا عن اتخاذ الإجراءات اللازمة لوضع هذا الاجراء موضع التنفيذ ، وعلى الفور أقدم بسللوس على التحدث بصراحة مباركا وجهة النظر الامبراطورية مثنيا عليها مبينا فضائل قسطنطين ، وتقدم إليه أخذا بيده « وأجلسه على العرش واضعا على كتفه العباءة الأرجوانية و « الصندل »

Ibid. 81 (١)

(٢) Ibid. 89 ويطلق فازيليف على اعتزال اسحق كومنينوس العرش بعد فترة قصيرة من الحكم (١٠٥٧ — ١٠٥٩) بقوله انه ليس هناك أسباب واضحة لذلك اللهم الا القول بأنه كان ضحية مؤامرة واسعة دبرها كبار ملاك الأراضي ، حيث عرف عن اسحق اهتمامه بزيادة دخل الخزانة العامة بأية وسيلة . ولهذا وضع يده بصورة شرعية على ممتلكات كبار الملاك من العلمانيين . بالإضافة إلى مساحات واسعة مما تسيطر عليه الكنيسة مما أثار سخط العلمانيين والاكليروس على السواء . ومن المحتمل أن يكون لدى بسللوس من الأسباب ما دفعه إلى الاشتراك في هذه المؤامرة . Vasiliev, op. cit. Ip. 352

وقد يتفق هذا القول إلى حد كبير مع ما يذكره بسللوس من أن اسحق أقدم على إلغاء كثير من المشروعات التي كان قد بدأها الأسلاف وراح ينفذ مشروعاته بشكل استفزازي أثار ضده كراهية الجموع وعددا ليس بالقليل من العسكريين الذين ساءهم تجريدهم من أملاكهم وثرواتهم . قارن Chron.VII. 60—65

Chron.VII. 71 (٣)

Ibid. 89 (٤)

الرومانى فى قدميه. عند ذلك أبدى السناتو بالاجماع رضاءه وموافقته. ساعتهام لم يتمالك قسطنطين نفسه ، غنهض من فوق العرش معانقا ، والدهوع تملأ عينيه ، بسللوس وعهد اليه لثقتة التى لا حد لهما فيه بالقاء خطبة العرش (١) .

من أجل هذا أضحى بسللوس لصيقا لقسطنطين ، وكيف لا وقد كتب أن « هذا الرجل استطاع أن ينال ثنائى وهو بعد مواطن عادى ، وان يحظى باعجابى وهو امبراطور . انه أحد القلائل الذين لم أزدريهم مطلقا . لقد حصلت فى كنفه بعد اعتلائه العرش على أعلى المراتب ، وكنت دائما أتجاذب وإياه أطراف الحديث ... وأصبحنا على هذا النحو قريبين الى بعضنا البعض الى حد تبادل الزيارات . ان احدا من الأباطرة الذين عاصرتهم لم يحفظ لى المكانة المرموقة التى أنا بها جدير كما أهوى ، مثلما فعل قسطنطين » (٢) ، لقد وجد الامبراطور فى صحبتى سعادة غامرة ، ولم يكن لأحد غيرى عليه مثل هذا التأثير المريح ، وإذا ما حالت الظروف ذات يوم أن التقتى به أكثر من مرة ، أبدى من ذلك سرمه وشكا . لقد كان يجلى أكثر من أى انسان آخر » (٣) .

ويكاد بسللوس « يجزم » بأنه ليس هناك امبراطور عاش حياة مجيدة أكثر منه ، ولا مات أشد سرورا منه ، فقد انقضت حياته فى هدوء تام ، وخلف وراءه على العرش ابنا كان صورة حية لأبيه فى صفاته وأخلاقه (٤) . وعبارة بسللوس القائلة « بانقضاء حياته فى هدوء تام » تعبر عن الحقيقة التى لم يقصدها هو بالطبع ، فقد جاء اعتلاء قسطنطين العاشر العرش انتصارا للإدارة المدنية البيروقراطية فى العاصمة ، ضد الأرستقراطية العسكرية والولايات التى كانت ممثلة من قبل فى اسحق كومنينوس . من أجل هذا صرف الرجل همه فى محاولة إعادة تنظيم الشؤون المدنية والتشريعية ، واتساقا مع قدرته أهمل الجيش أهلا تاما ، وتلقت الامبراطورية نتيجة لذلك

Ibid. VII Const. X, 11 — 12

(١)

Ibid. I, 7 — 8

(٢)

Ibid. 25

(٣)

Ibid. 28

(٤)

اللطحات من جانب السلاجقة في الشرق ، والغز والبشناق من الشمال . وقد صدق بسللوس فيما ذكره عن ذرية قسطنطين باعتبارهم تجسيدا حيا لأبيهم ، فقد كان ميخائيل السابع دوكاس حقا مثلا سيئا للحاكم البيزنطي ، وتلميذا « غيبا » (١) في الوقت ذاته لأستاذه الذي كان بسللوس نفسه .

فلما توفي قسطنطين الموت وخلفته لفترة قصيرة جدا زوجته يودوسيا Eudocia كان لديها مقربا اثرا كما كان بالنسبة للإمبراطور الراحل . غير أن العسكريين أرغموها على الزواج من أحد رجالهم وهو رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus, IV Diogenes وإعلانه إمبراطورا . وقد وقع هذا على رأس بسللوس كالصاعقة عندما أنبأته الإمبراطورة به وهي تحارره للوقوف على رأيه ، وليس أصدق على التعبير عن حال بسللوس آنئذ إلا ما سجله قلمه : « لقد ملأت هذه الكلمات نفسي بالرعب والهلع ، ولم أكن في حال تسمح لي بتصور ما سوف يحل بي » (٢) . وأخذ يحاول المراوغة في إبداء رأيه طالبا التأجيل الى اليوم التالي حتى يتمكن من التوصل الى رأى يرتاح اليه فؤاده ، غير أن يودوسيا لم تدع له الى ذلك سبيلا ، فلما لم يجد بدا من الادلاء برأيه أمام حصار الإمبراطورة له راح يسفه لها هذا الرأي ، ويزين لها المناداة بابنها ميخائيل إمبراطورا حتى تقطع السبيل أمام هؤلاء المعارضين من الحزب العسكري . وقد شكرت له يودوسيا بخبث ولماحية شعوره تجاه ولدها الذي فوجيء به بسللوس من بعد « يعانق رومانوس الرابع ديوجينيس ويفدو أخلص أصدقائه » (٣) .

وأمام هذا السلوك من جانب الإمبراطورة يودوسيا وميخائيل ، تلميذه ، وقبلهما العسكريون ، كان على بسللوس أن يتراجع عن موقفه بسرعة وذكاء حتى لا يكتسب عداء رومانوس الذي يبدو أنه لم يغفر هذه السقطة لبسللوس ،

(١) انظر العالم البيزنطي ص ١٧١

Chron. VII. Eudocia 7

(٢)

ID.

(٣)

ولولا قربه من يودوسيا واعتزاز هذه به لقضى عليه . أما ما يرويه مؤرخنا عن أياديه البيضاء على الامبراطور قبل اعتلائه العرش ، ومحاولته التقرب اليه بكل مظاهر « المذلة والتدنى » ، فيمكن اعتباره شيئا أراد به بسللوس ان يحفظ ماء وجهه ، خاصة وان الامبراطور قد غل يده عن التدخل في شئون الدولة ، وهذا واضح من قوله : « ان الامبراطور كان يرغب في ادارة دفعة الامور في الامبراطورية منفردا ودون تدخل من جانب أى انسان » (١) . ويبدو ان بقاء بسللوس في القصر كان مرتبطا فقط ببقائه استاذا لـ ليخائيل دوكاس .

ولا شك ان مجرى الامور على هذا النحو كان له اثره البالغ على نفس مؤرخنا وبالتالي كتاباته ، ومن ثم لم يتعرض أى امبراطور من هذا الثبت الطويل الذى عايشهم بسللوس لسخريته اللاذعة او نقده القذحى او تهكمه البالغ ، كما عانى رومانوس الرابع ، رغم انه كال يعد من أقدر اباطرة هذه الفترة باستثناء اسحق كومنينوس . ولا يعدو الجزء الذى أوقفه بسللوس على رومانوس الرابع في تاريخه هذا ، كونه قصيدة هجاء نظمها في التعريض بهذا الامبراطور ، وان كان قد بدا له مستحيلا في الوقت ذاته انكار شجاعته العسكرية في حروبه ضد الأتراك السلاجقة (٢) .

وطوال أربع سنوات (١٠٦٧ — ١٠٧١) حكمها رومانوس الرابع ديوجينيس لم يأل بسللوس جهدا في سبيل الخلاص منه او اضرار الشر له ، حتى لاحت له الفرصة في الهزيمة الفادحة التى منى بها الامبراطور سنة ١٠٧١ . وكان رومانوس قد عهد الى بسللوس « بمهمة صغيرة » في الحملة التى قادها ضد الأتراك سنة ١٠٦٩ ، ولم يحدثنا مؤرخنا بشئ عن طبيعة هذه المهمة ، وان كان يذكر أنه قبلها كارها امام اصرار الامبراطور (٣) . حتى اذا كانت سنة ١٠٧١ ولقى الامبراطور هذه الهزيمة الساحقة عند منكرت في آسيا الصغرى على يد الأتراك السلاجقة بزعامة سلطانهم الب

Ibid. Romanus IV, 2 (١)

Ibid. 2 — 12 (٢)

Ibid. 6. (٣)

أرسلان ، ذهب عن بسللوس الروح وجاءته البشرى بأن رومانوس قد وُثِّع أسيراً في أيديهم ، فراح يجادل مع المستشارين الذين اجتمعوا ليروا في هذه الأزيمة رأيهم . وانقسم الحاضرون : بعضهم يرى أن يفرد ميخائيل بإدارة دفعة الحكم ، وآخرون يفضلون أن تتركز السلطة في يد يودوسيا دون ولدها . أما بسللوس فقد أثر كعادته دائماً الطريق الوسط بين هؤلاء وأولئك ، فاقترح أن يشترك ميخائيل وأمه في الحكم ، ويرمى الفريقين بأن كلا منهما كان يسعى من وراء اقتراحه هذا إلى تحقيق مصلحة معينة (١) .

ولكن الأحداث تتابع من بعد سراحاً بحيث تقطعت من جرائها أنفاس بسللوس ، فلقد تلتقى القصر أنباء تفيد أن السلاجقة أطلقوا سراح رومانوس وأنه الآن في نفر ليس بالقليل من أنصاره في طريقتهم إلى القسطنطينية . فارتجت الأمور على الجميع عند سماعهم بهذا النبأ ، وأصيب القصر بحالة من الهلع ، وشخص بسللوس إلى هناك وسط هذه الفوضى ، وأحيط به من الجميع يسأله الرأي ونصحه ، « واشترك محبوبي الإمبراطور (ميخائيل) مع الآخرين في الإلحاح على اللادلاء برأى . فأعلنت بلا تردد أن زمن رومانوس قد ولى ، وأنه لم تعد هناك فرصة أو ضرورة لاستقباله بل يجب أن ينظر إليه من الآن باعتباره طريداً ، ولا بد من أن ترسل انتعيمات إلى الولايات تخبرها بانقضاء عهده . وقد استصوب المعتدلون ذلك ، بينما تبني المتطرفون رأياً مغايراً (٢) .

وليس من الصعب تمثل العواطف التي حدثت ببسللوس إلى اتخاذ هذا القرار ، فهو يعلم يقيناً أن عودة رومانوس للعرش تعنى القضاء على آماله وطموحاته أن لم يكن حياته ، ومن ثم لم يتردد في إعلان رأيه صراحة ، بل أنه يذكر بعد إعلان رأيه على هذا النحو ، أن ميخائيل انفرد بالسلطة دون أمه معتمداً في ذلك على تأييد ابني عمه أندرونيكوس وقسطنطين دوكاس والحرس الإمبراطوري الخاص الذي كان يعرف آنذاك

Ibid. 15.

(١)

Ibid. 18.

(٢)

بـ « الورنك » (١) Varangians وجماعة المتحمسين له (٢) ، ولا يشير الى تسميته بـ دور في هذه الاجراءات ، بل على العكس من ذلك تماما يذكر أنه الامبراطورة والمقرين اليها سارعوا بالاختفاء في الدروب السرية للقصر ، حالة انفراد ميخائيل بالسلطة ، « بينما تملكه هو الخوف وانزعج على حياته ولم يدر أى مصير ينتظره ، الى أن انقذه من هذا الضياع تذكر (!!) الامبراطور له عرفانا بالجميل ، ذلك أن ميخائيل نوكاس بث رسله وأعوانه للبحث عنه واحضاره اليه على الفور ، فلما أدركه حرس الامبراطور حملوه على أعناقهم وجاءوا به الى سيدهم ، وقدموه كما لو كان هدية قيمة ... (لقد كنت أول انسان تذكره الامبراطور) !! » (٣) .

وبسللوس يبدو هنا في حديثه غير مقتنع على الاطلاق ، بل يظهر واضحا الاضطراب وعدم اتساق السياق . اذ لماذا يخشى الامبراطور على حياته وهو أقرب الناس اليه بل وأول من « تذكرهم » الامبراطور وبعث في طلبهم بعد انفراده بالعرش مباشرة ؟ وأى « جميل » يعرفه له ميخائيل الا أن يكون بسللوس نفسه هو صاحب فكرة انفراد ميخائيل بالسلطة ، وعلى رأس المتحمسين لها ، محاجا بأن الأمور تستدعى الآن وجود رجل فرد على العرش في مواجهة الخطر الذى يتهددهم جميعا ممثلا في قرب عودة رومانوس

(١) اعتمد الاباطرة البيزنطيون خاصة في القرن الحادى عشر على العناصر الأجنبية الأوروبية في تكوين الجيش البيزنطى وبصفة خاصة بعد أن فقدت بيزنطة آسيا الصغرى على يد الأتراك السلاجقة . وكانت هذه العناصر تتكون في مجموعها من الاسكندنافيين ثم الأنجلو سكسون من بعد ، وقد جعل منهم الاباطرة البيزنطيون في القرن الثانى عشر حرسا خاصا لهم وشاعت تسميتهم باسم الورنك Varangians للمزيد من التفاصيل راجع

A short history of U.S.S.R. Vol. I. pp. 34 — 38.

Brooke, Europe in the central Middle Ages, pp. 45 - 46 وايضا

Thomapson & Johnson, an introduction to Medieval وكذلك

Europe, pp. 172 — 182

Runciman, a history of the Crusades III. p. 118 وكذلك

وراجع : العالم البيزنطى ص ١٥٢ حاشية ١

Chron. VII. Romanus IV, 19 — 20 .

(٢)

ID

(٣)

ديوجينيس الذى يعد من الناحية القانونية الامبراطور الشرعى وزوجا ليودوسيا ؟ وكيف ينسب ميخائيل موقف بسللوس الجرىء عندما عارض عودة رومانوس وطالب باعتباره خارجا على القانون ؟ بل كيف يتفق هذا مع ما يذكره بقلمه بعدما قدمه الجنود الى الامبراطور « كهدية ثمينة » ؟ فقد كتب ما نصه : « ما أن وقعت على عيناه حتى تنفس الصعداء وعهد الى على الفور باتخاذ كافة القرارات التى أرى أنها ضرورية » (١) . ومن العجيب أنه كان فى مقدمة هذه القرارات ابعاد يودوسيا عن القصر ، وقد أصدر بسللوس ، انذى أصبح الوزير الأول فى الامبراطورية أوامره بترحيلها الى الدير الذى كانت قد أقامت به باسم العذراء لتقضى فيه بقية عمرها ، وتم تنفيذ ذلك على الفور رغم رفض ميخائيل التصديق على القرار (٢) .

وهل يمكن أن نصدق بسللوس فى هذا الذى يذهب اليه من « الهلع والجزع » وهو الذى كتب يقول فى معرض حديثه عن علاقة ميخائيل السابع به : « ان أحدا من اخوته لم يحظ بثقته كما حظيت ، ولا النبلاء نالوها ولا حتى رجال الدين ، لقد تدفقت على الهبات والعطايا وتنزلت على النعم واحدة فى اثر الأخرى ، وزادت ثروتى التى كنت بالفعل أمتلكها . حقيقة لقد فعل الكثيرون قبله ذلك تجاهى ، لكن ما يميزه عنهم هو عمق احساسه نحوى ، لقد بدا سعيدا فى صحبتى مؤمنا بشموخ هامتى فى العلم . لقد كنت أضرع الى الله فى صلاتى أن لا تعرف الغيرة او الحقد الى هذه المودة سبيلا » (٣) .

الذى يبدو لنا أن بسللوس بحديثه هذا يظهر نفسه بعيدا عن الأحداث الخاصة بتقلبات السياسة ونزوات الحكم ، وهو هنا يعيد نفس الدور الذى رسمه لنفسه من قبل عند الثورة على الامبراطور ميخائيل السادس ، وهو يقر هذه الحقيقة عندما يذكر أنه فى مثل هذه الأمور

Ibid. 20

(١)

Ibid. 21

(٢)

Ibid. VII. Michael VII. 8.

(٣)

« نرى التاريخ يعيد نفسه ، فالأحداث تكاد تكون واحدة والأقوال نفسها لا تختلف » (١) .

على أن أخطر القرارات التي كان على بسلوس أن يتخذها الآن هو التخلص من رومانوس ديوجينيس ، فهو مازال على قيد الحياة ، ووجوده يشكل خطرا بالغاً على بسلوس بصفة خاصة . وقد ألح إليه عندما ذكر أنه لا يستبعد احتمال تنازل ميخائيل عن العرش « لزوج أمه » ، ولا شك أن بسلوس كان أكثر الناس معرفة بجوانب شخصية تلميذه وسمات الضعف الكامنة فيه ، ومن ثم فقد جردت الحملات المتتالية لقتال رومانوس في آسيا الصغرى حتى انتهى الأمر بالقبض عليه وسمل عينيه (٢) . ولا شك أن سعادة بسلوس عندئذ كانت غامرة ، فحتى منذ لقي رومانوس أول هزيمة له أمام قوات ميخائيل وقبل أن يقع في قبضتهم كتب يقول . « للمرة الأولى نشعر الآن بالثقة في المستقبل » (٣) .

هكذا حقق بسلوس طموحه كله والآمال ، فهو أستاذ الإمبراطور الجالس على العرش ، ووزيره الأول ، بيده مقاليد الأمور كلها ، ولهذا لم يكن غريباً أن يكون الجزء الأخير من كتابه مظهرة امتداح لميخائيل السابع الذي « بز كل من سبقوه على العرش فكراً ، بل فاق مؤرخه الذي يكتب عنه الآن . وباختصار .. لقد كان ميخائيل معجزة هذا الجيل » (٤) . لكن الذي يعرفه التاريخ عن ميخائيل السابع دوكاس غير هذا تماماً ، وليس أدل على ذلك مما يرويه أحد كتاب « التاريخ الزمنى » آنذاك وهو

(١) يشير هنا الى ما كان من موقف ميخائيل الخامس ازاء أمه بالتبني الامبراطورة زوى وما انتهى اليه امر الامبراطورة الام يودوسيا ،

Chron. VII. Romanus IV, 22,

(٢) يتحدث بسلوس بالتفصيل عن الحملات التي جردت ضد رومانوس الرابع والمعارك التي دارت ، وما كان من أمر القبض عليه وسمل عينيه ودخوله الدبر ليقضى في الظلام بقية حياته التي لم تستمر بعد ذلك طويلاً ، وينفى عن ميخائيل السابع معرفته بما وقع لرومانوس من فقء عينيه ، ويؤكد أن ذلك تم دون علمه .

Chron. VII. Romanus IV, 23 — 34

Ibid. 24

(٣)

Ibid. Michael VII, 4

(٤)

يوحنا سكيلتزس J. Scitzes بقوله : « كان الامبراطور يقضى وقته ويبدد طاقته في أمور تافهة ، فتعاد امبراطوريته بالتالى الى الدمار ، ولقد اضله مستشاره وناصحه بسللوس . وبينما كان هذا يركز السلطة كلها في يديه ، وجد ميخائيل السابع لديه من الوقت ما يكفى لممارسة الألعاب الصيبانية التافهة . لقد جعله بسللوس رجلا لا يصلح مطلقا لهذا المنصب الذى يشغله (١) . بل ان بسللوس نفسه لم يستطع أن ينكر حقيقة هذه الأوضاع المتردية فذكر أن « الأمور في الشرق والغرب على السواء قد وصلت الى الدرك الأسفل من الحضيض (٢) » ، وكان لابد ازاء هذا الضعف العام الذى ألم بالحكومة الامبراطورية والامبراطورية ، أن تنشب الثورة ضد الجالس على العرش سنة ١٠٧٨ ، وقد تزعمها نيقفور بوتانياتس Nicephorus Botaniates الذى نودى به امبراطورا في آسيا الصغرى (٣) ، وأكره ميخائيل السابع على الاعتزال والانسحاب الى أحد الأديرة ليبقى فيه ما بقى له من عمر . عند هذا الحد يتوقف التاريخ ببسللوس ولا نسمع له من بعد ذكر ، ويبدو أن الامبراطور نيقفور الثالث (١٠٧٨ — ١٠٨١) ، والذى يمثل عهده آخر سنى فترة الانحلال هذه ، قد القى به خارج دائرة الضوء الذى ظل يمثل بؤرته طيلة ما يقرب من أربعين عاما . وكانت الأقدار رحيمة به فقد رحل عن الدنيا في نفس العام (١٠٧٨) عن ستين سنة ، فلم يشهد الا لبضع شهور تقلب الدنيا به وانصراف الدهر عنه .

ويذهب سوتر E. R. A. Sewter في تقديمه لمؤلف بسللوس « التاريخ الزمنى » الى أن ميخائيل السابع دوкас « الذى تدرب بمهارة وعناية كي يصبح ملكا فيلسوفا قد أقدم على طرد أستاذه بسللوس من منصبه ووضع يوحنا الايطالى J. Italus بدلا منه » ، ويقول في موضع آخر « ... غير أنه فجأة وعلى نحو غامض فقد الكثير من مكانته على يد

Fourteen byzantine rulers, pp. 369 — 370, n. I (١)

Chron. VII Michael VII, 7 (٢)

Ibid. 18 — 20 (٣)

ميخائيل الذى تنكر له ولما أسداه اليه من معروف «(١) وقد نتفق مع سوتر فى الشق الأول مما يذهب اليه وهو (وضع) يوحنا الايطالى ، وهو من أخلص تلاميذ بسللوس وأقدرهم ، مكانه فى منصب أستاذ الفلسفة بجامعة القسطنطينية(٢) ، وربما يعود ذلك الى أن مؤرخنا كان قد أصبح شيخا طاعنا فى السن ، أو لأنه أراد أن يتخفف من الأعباء الملقاة على عاتقه بعد أن أصبح أستاذا لميخائيل دوكاس ووزيره الأول الذى يمسك بيديه دفة الأمور فى الدولة ، ويؤيد هذا ما أسلفناه من قول المؤرخ المعاصر يوحنا سكيلتزس .

أما ما يذهب اليه سوتر من القول بتنكر ميخائيل لأستاذه ، فهذا مالا تؤيده الأحداث ولا حتى كتابات بسللوس ، فمؤلفه « التاريخ الزمنى » ينتهى فجأة ودون توقع عند أحداث الثورة التى قام بها نيقفور بوتا نيأتس عام ١٠٧٨ ، وهى السنة التى مات فيها بسللوس ، والرسالة التى بعث بها ميخائيل الى نيقفور فى محاولة منه لاثناؤه عن بغيته فى الوثوب على العرش . بل انه قبل ذلك مباشرة يتحدث عن قسطنطين ، الطفل الرضيع لميخائيل « الذى لم ير فى حياته على وجه الأرض جمالا فى مثل جماله » . ولو أن ميخائيل كان قد غدر بأستاذه بسللوس ، لما تردد هذا فى أن يصب عليه غضب قلمه كما فعل مع كثيرين غيره من الأباطرة الذين سبقوه ، ولو حتى بالتلميح الذكى والتورية الساخرة التى يتميز بها كتابه . ونوق هذا وذاك فان الكتاب بهذه الصورة المتورة يعد دليلا قاطعا على أن بسللوس لم يتمكن من اتمامه لأحداث فجائية تعرض لها ، وهذا فى حد ذاته يشير الى بقاءه فى السلطة حتى الاعتزال القهرى لميخائيل السابع .

هذه هى حياة بسللوس السياسية على امتداد أربعين سنة الا قليلا ، أداها بالأسلوب الذى يتفق ومتاهات السياسة ودروبها فى الفترة التى عاش فيها ، « فلم يكن باستطاعته أن يقف بعيدا موقف المتفرج » والعاصفة تتجمع أمام ناظره لتدري بكل شيء . كان عليه أن

Fourteen byzantine rulers. introd. pp. 14 — 17 (١)

(٢) راجع « العالم البيزنطى » ص ٢٦٨ .

يحمى نفسه ، وفي بيزنطة فان احسن وسائل الدفاع الهجوم ، ولكن بأسلوب تمويهى . ولكى يتعدى للدعاية الماكرة التى اطلقها أعداؤه ، كان لزاما عليه ان يلجأ الى استخدام كل دهاء الساسة الذين لا يرعون الا ولا ذمة « (١) . وقد نجح بسللوس فى ذلك نجاحا بالغا ، ولخص حياته السياسية هذه كلها فى عبارة بليغة . . . « لست من ذلك الصنف من الرجال الذين اذا ما بدأ النزال ولوه دبرهم » (٢) ولا شك انه كان يمتلك من الكفاءات المتعددة الجوانب الشيء الكثير ، الى جانب ذكائه ولماحيته وحسن استقرائه وتقديره للأمور .

فلقد كان بسللوس عالما موسوعيا جمع فى عقله برعى الكثير من فروع المعرفة الانسانية ، مثقفا واسع الثقافة ، قرأ لهز ميروس وهزيود وهرودوت وثوكيديدس وديموستينز وليزياس وثيوفراستس وبلوتارخ ، وفلاسفة الرواقية، وآباء المسيحية خاصة جريجورى النازيا نزي وبروفيرى وايا مبليخوس وبروكلوس ، وفلاسفة الاغريق خاصة أرسطو ، وفوق هؤلاء جميعا محبوبه افلاطون (٣) . وأنجز الكثير ابان حياته ، وترك العديد من المؤلفات فى اللاهوت والفلسفة والعلوم الطبيعية وفقه اللغة والتاريخ والقانون ، ونظم عددا من النصائد ، وكتب مجموعة من الخطب ، وخلف قدرا من الرسائل (٤) بحيث يمكن تشبيهه الى حد كبير بفوطيوس Photius بطريك القسطنطينية الأشهر فى القرن التاسع فى سعة اطلاعه وتعدد اهتماماته

(١) انظر : Fourteen byzantine rulers, introd. p. 16.

(٢) Ibid. 17

(٣) Chron. IV 36; VI 61, 150, 169, 175; VI Theod. 9, VII

Rom. IV 3; VI 24, 37 — 38

(٤) انظر : Vasiliev, op. cit. I, P. 368.

وايضا : Baynes & moss. op. cit. p. 237

الفكرية (١) . واتسعت مداركه أيضا لدراسة الطب بل وممارسته في بعض الأحيان (٢) والفلك والتنجيم (٣) ، والبلاغة والهندسة والموسيقى (٤) ، وإلى جانب هذا كله العلوم العسكرية والخطط الحربية (٥) . وفي قول بليغ يصف بسللوس نفسه قائلا : « الحقيقة ان ثقافتى عريضة ، والاسئلة التى تواجهه الى عديدة ومتنوعة ، بحيث يمكننى القول انه ليس هناك علم من العلوم لم أجد عندى الرغبة فى دراسته » (٦) .

(١ ، ٢) يتحدث بسللوس عن دراسته للطب ومعرفته الوثيقة بأسرار هذا العلم وممارسته له عندما راح يجادل الطبيب المختص بعلاج الإمبراطور أسحق كومنينوس فى نوع الحمى التى أصابت الإمبراطور . انظر Chron. VII. 74 راجع حاشية ٣ ص ١٥٦ ، ١٥٧

(٣) يقول بسللوس : انى لأعترف حقيقة انى قد تابرت على دراسة ذلك « العلم » بكل مفاهيمه ولم يكن أى من هذه الدراسة محرما من الكنيسة مادام لا يستخدم بصورة سيئة . ولكنى مع هذا لم أكن أعتقد مطلقا بأن أوضاع النجوم ومساراتها لها أى تأثير على ما يحدث فى عالمنا . انظر Chron. VI Theod II 39 (٤)

(٥) يذكر بسللوس أنه كان على دراية واسعة ومعرفة كاملة بفنون القتال وعلوم الحرب ، وقد توصل الى ذلك من خلال دراساته فى هذا الميدان ، ويتضح هذا من مواقفه المتعددة مع الإمبراطور رومانوس الرابع حيث يصفه بأنه كان « جاهلا » بالعلوم العسكرية . ويبدى بالتفصيل اعتراضاته دائما على خططه العسكرية فى حملاته التى قادها ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى ، ويقول : « لقد اعتدت دائما أن أوجه النصيحة الصادقة والمفيدة الى الإباطرة ، وحاولت ذلك معه مبينا ضرورة مناقشة الأمور العسكرية واجراء الاستعدادات اللازمة قبل اعلان الحرب ، غير أن الثرائين الذين دأبوا على معارضة كل ما أقول ، قادوا الإمبراطورية الى الهلاك » . ويصف تصرف الإمبراطور فى احدى معاركه ضد السلاجقة بأنه يدل على « منتهى حماقة » ويقول فى موضع آخر : « كانت خبرتى الفائقة ومعرفتى المتفوقة فيما يتعلق بالعلوم العسكرية والخطط الحربية شيئا يفوق الوصف ، فلقد درست بعناية تامة كل ما يتصل بالتشكيلات العسكرية وبناء القلاع وحصار المدن وكل ما له أهمية خاصة لدى أى قائد عسكري ، كل هذه المعرفة حركت فيه « رومانوس » ليس بواعث الإعجاب بى ، بل كوامن الحسد لى ، ومن ثم فقد دأب على معارضتى فى كل شيء ، محاولا التنوق على فى كل نقاش . ولسوف يعلم الكثيرون ممن شاركوا فى هذه الحملة انى لست مبالغا فيما أذكره الآن » . للمزيد من التفاصيل عن المامه بالعلوم العسكرية وعداوته للإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس انظر .

Chron. VII Romanus IV, 3 — 7, 11

Chron. VI Theod

(٦)

على أن أحب هذه الميادين جميعها الى قلب بسللوس كانت الفلسفة(١)،
 فقد كان يفخر دائما بلقب الفيلسوف ويعمله باعتباره أستاذ الفلسفة
 بجامعة القسطنطينية ووقف على دراستها حياته كلها (٢) . ولندع القلم
 الآن لبسللوس ، فليس هناك من هو أصدق منه حديثا عن نفسه . يقول :
 « ... كنت آنذاك فى الخامسة والعشرين من عمرى عندما شغلت
 بالكثير من الدراسات الجادة » وكانت جهودى مركزة فى ناحيتين رئيسيتين :
 أولاها أن أدرب لسانى على الفصاحة حتى أغدو خطيبا مفوها ، والثانية
 أن أزكى بدراسة الفلسفة عقلى ، فلم ألبث أن امتلكت ناصية البلاغة
 حتى أصبحت قادرا على أن أصل الى جوهر الموضوع دون عناء ،
 وأن أعلق عليه منطقيا بأفكارى الرئيسية والنقاط التى يستدعيها المقام .
 وقد علمنى ذلك أن لا أقف موقف الرهبة أو المرتعد ازاء أى فن من الفنون،
 ولا أن أتبع كل وصاياهم فى كل ناحية شأن الأطفال . فحققت لنفسى سمعة
 عريضة وأنا بعد غض غرير ، ووطنت نفسى على دراسة الفلسفة ، ولما
 أيقنت أنى أصبحت على قدر كبير من المعرفة بفن الجدل بشقيه
 الاستدلالي والاستقرائى ، وليت وجهى بعد ذلك شطر العلوم الطبيعية ،
 وقادنى طموحى الى معرفة المبادئ الأساسية للفلسفة من خلال
 الرياضيات .

« وإذا لم يجدنى القارىء — خلال استطرادى هذا — ثقيلا
 الظل ، وإذا ما سمح لى بالمضى فى حديثى فسوف أضيف الى معلوماته شيئا
 عن نشاطاتى . هذه الحقيقة التى على وشك أن أقدمها أكسبتنى مكانة
 مرموقة بين رجال العلم بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى(٣)
 وأنت أيها القارىء سوف تستشعر الصدق فى كل كلمة من كلماتى .
 فالفلسفة عندما بدأت فى دراستها كانت على شفا جرف هار تحتضر ، على
 عكس ما كان أساتذتها يؤملون . وقد أعدت إليها أنا وحدى الحياة
 دون أن انتلذ على أحد يستحق الذكر ... ولتدقيل ان اليونان حازوا

Ibid. VI 26; VII 81

(١)

Ibid. VI 197

(٢)

(٣) يشير هنا الى مركزه السياسى وقربه من البلاط .

شهرة واسعة في هذا المجال ، وانهم عبروا عنها في كلمات وقضايا مبسطة ، بقى عملهم في هذا الميدان مقياسا للمستقبل ومعيارا . واذا كان هناك من يهاجم بساطة ايونان ، فاني رحت أتحري الأمر ، التقي بالعالمين بيوطن هذا الأمر ، فأشاروا على بمتابعة دراستي بأسلوب منهجي ، ومن ثم قادني واحد الى آخر ، ومن بصيص ضوء أبصرت النور الباهر ، ومن هذا الى ذاك حتى انتهيت الى أرسطو وأفلاطون . ومما لا شك فيه أن من سبقوني كانوا قانعين تماما باحتلال المرتبة الثانية بعد هذين الفيلسوفين .

« وابتداء بهذين المصدرين أكملت رحلتي نزولا الى أفلاطون Plotinus وبروفيري Prophyrius وإيامبليخوس lamblichus وأدخلت ضمن مسيرتي ذلك الرجل الذي يسحق التقدير والاعجاب بروكلوس Proclus ، ومنه زاد عزمي على المزيد من الدراسة لما وراء الطبيعة مع مقدمة عن العلم التجريدي . ومن ثم فقد بدأت بدراسة المفاهيم المجردة للرياضيات ، وهي التي تتوسط الطريق بين العلوم ذات الصبغة التجريبية والمسائل الذهنية موضوع الفكر الخالص(١) .

« ... أقول هذا بكل الصدق والاخلاص دون أى خيلاء .. فأنا لست ممن يخدع بانطباع زائف عن أهميتي الخاصة ، ولست جاهلا بمدى قدراتي، وان مقدرتي لتتضاءل جدا اذا ما قورنت بكفاءة أولاء انفلاسة وأساتذة البيان الذين يفوقونني . غير أنه اذا ما أراد أحد أن يثنى على جهدي ، فليكن ذلك بالأحرى راجعا الى أني استلهمت معايير الحكمة من ينابيع طمرت مع الزمن ، ذلك أن المصادر التي اكتشفتها كان قد نضب معينها ، وكان على أن أجلو بنفسى ما علق بها . بل ان مياهها كانت في الأعماق قد غاضت ، ولم تطف الى السطح من جديد الا بعد أن نتحتها بالجهد كل الجهد .

« واليوم .. فان أثينا ونيقوميديا والاسكندرية وفينيقيا ، بل وحتى روما القديمة وسميتها الجديدة (القسطنطينية) لم يعد لأى منها أن تتباهى

بشيء من الأعمال الأدبية ، ذلك أن ما تم إبداعه في العصور الذهبية والفضية الماضية قد توقف وأصبح بعيد المنال ، ولذا فإن المصادر الأصلية التي لم استطع الحصول عليها أو التوصل إليها ، دفعني إلى الاستعاضة عنها بالنسخ غير الأصلية التي تحاكيها . والتهم عقلي بنهم كل ما وقع تحت يدي ، ومنها جمعت كل معلوماتي ، ولم أحقد على أحد مشاركته لي فيما وصلت إليه في هذه الرحلة الشاقة . لقد كنت أرحب دوما بكل من يريد أن يتعلم عنى ، ولم أطلب من أحد أبدا أن يدفع لي اجرا عن محاضراتي ، بل كنت على استعداد لم يد العون إلى الطلاب الحريصين على تحصيل العلم من جيبى الخاص . لقد كانت ازاهير حياتي تشير إلى مستقبل باهر حتى قبل أن تصبح قطونها دانية « (١) .

ويبدو بسللوس في حديثه على قدر كبير من الثقة بالنفس والاعتزاز بها بل والتعالي في بعض الأحيان ، وقد نلتبس له العذر حقا فيما يذهب إليه ، ذلك أن الفلسفة بعد ازدهار المتزايد الذي حققته بمرور سنى القرون الثمانية الأولى للميلاد ، أخذت تتولى إلى الظل بصفة عامة خلال القرنين التاسع والعاشر في بيزنطة ، ولعل هذا يعود في الدرجة الأولى إلى أن هذين القرنين وبداية القرن الحادى عشر شهدت اهتمام الامبراطورية، تحت سيادة الأباطرة العسكريين ، بمجابهة التحديات الخارجية على الجبهات الشمالية والشرقية والغربية ممثلة في العناصر الصقلية وجماعات البشناق والمسلمين والبلغار ، بينما راح النشاط الثقافى يأخذ طريقه رويدا نحو الاضمحلال . وقد لاحظت ذلك كاتبة القرن الثانى عشر انا كومننا Anna Comnena ابنة الامبراطور الكسيوس كومنينوس ، عندما ذكرت أن التعليم قد أهمل من جانب الغالبية العظمى من الناس ، وأن لم يصل إلى النضيف (٢) . هذا من ناحية ، ومن الأخرى فإن التدهور الفكرى يرجع أيضا إلى استقرار الفكر الارثوذكسى بعد الصراع حول

Ibid. VI 42 — 43, 44

(١)

Baynes & Moss, op. cit. p. 217

(٢)

الايقونات خلال القرن الثامن واولائل التاسع (١) ، وزيادة الحركة الرهبانية وروح الديارانية التي كانت تنظر الى الفلسفة الوثنية باعتبارها شرا محضا وعملا يوسوس به الشيطان ، حيث كانت الفلسفة الوحيدة الحقيقية في نظر الرهبان آنذاك هي « طلاق العالم » . بل ان اعادة تنظيم جامعة القسطنطينية على يد القيصر بارداس Bardas في القرن التاسع ، وصاحب القلية المتحررة ، والبطريك فوطيوس ، لم يد الى اعادة احياء الفلسفة مرة ثانية . ولم يتيسر ذلك الا في اوائل النصف الثاني من القرن الحادي عشر عندما اعيد تنظيم الجامعة على عهد قسطنطين التاسع وكان الفضل الأول في ذلك يعود الى بسللوس (٢) .

غير ان هناك — كما يقول بسللوس — « نوعا جديد من الفلسفة تقوم أساسا على الغموض الذي يكتنف العقيدة المسيحية ، وهذه الفلسفة تتخطى ما عرفنا من قبل . وهذا الغموض يشتمل على مفهومين : الأول في الطبيعة ، اعنى الناسوتية واللاهوتية ، والثاني في الزمن اعنى النهائية والسرمدية . وهذه هي الفلسفة التي أصبحت موضع دراستي الخاصة دون بقية الفلسفات الأخرى » (٣) .

والحقيقة ان الفلسفة حظيت بنصيب كبير من الدراسة والاهتمام في بيزنطة باعتبارها سندا وتدعيما للمسيحية في مقاومتها لأعدائها من الفلاسفة الوثنيين . وكان كلمنت Clemens (١٥٠ — ٢١٥) رئيس مدرسة الاسكندرية اللاهوتية في اخربات القرن الثاني يعتمد الجدل في مواجهة ميثولوجيا الاغريق (٤) ، ولما كان شأن الفيلسوف سقراط يعتبر الجهل أكثر (١) للمزيد من التفاصيل عن الحركة اللايقونية ، راجع البحث القيم الذي كتبه دكتور أسد رستم تحت عنوان « حرب في الكنائس » ونشر في بيروت سنة ١٩٥٨ . وانظر أيضا :

Hefele, a history of councils of the church, Vol. V.

وكذلك Percival, the seven ecumenical councils of the undivided church (in Nicene and post nicene fathers of the christian church, Vol. XIV 2, p. 523-587

(٢) انظر C.M.H. IV 2 p. 245 وكانت الفلسفة قد حظيت بكرسى لها

منذ صدر قرار تنظيم الجامعة سنة ٤٢٥ ..

(٣) Chron. VI 42

(٤) Burkitt, the christian church in the east p. 480

اثما من الرذيلة ، فقد تحمس لدراسة الفلسفة جنبا الى جنب اللاهوت (١) ، وراح يهاجم أولئك الخصوم الذين يخافون الفلسفة ، خوف الطفل من القناع ، ولم يدخر وسعا في سبيل تبين ضرورة دراسة الفلسفة باعتبارها سلاح آباء الكنيسة للرد على فلاسفة الوثنية وسبيلهم الى تقديم المسيحية في ثوب علمي (٢) . ولم يكن هذا بالغريب على كلمنت فهو ينتمى الى أصل أثيني ، وعاش فلفسات اليونان ثم جاء الى الاسكندرية يحمل معه الكثير من الأفكار والآداب والفلسفات اليونانية (٣) .

وخلال القرون الستة الأولى للميلاد كانت الفلسفات الأفلاطونية والأرسطية والروايتية تلقى ذيوعا وانتشارا ، وأحرزت كل من الإسكندرية وأنطاكية قصب السبق في هذا الميدان ، وإن اختلف طريق كل منهما عن الأخرى . فقد أرسى أوريجن Origenes (١٨٥ — ٢٥٤) السكندري قواعد الفكر والمنهج واللاهوت الأفلاطوني في مدرسة الاسكندرية بعد أن درس الفلسفة على يد فيلسوف الاسكندرية الأشهر أمونيوس ساكاس Ammonius Saccas أبى الأفلاطونية المحدثه وأصبح علما على مدرسة الاسكندرية المجازية الصوفية في تفسير الكتاب المقدس ، وصاحب عقيدة الايمان المزدوج (٤) . على حين سار لوسيان Lucianus في أواخر القرن الثالث بالمدرسة الأنطاكية نهجا أرسطيا عقلانيا محضا في تفسير الكتاب المقدس ،

Atiya, a history of Eastern christianity, p. 34 (١)

Neander, history of christian dogmas, vol I. p. 63 (٢)

Creed, Egypt and the christian church, p.302. (٣) أنظر

(٤) أنظر Cantor, Medieval hist. p. 72 وكان أوريجن يعتقد أن فهم الكتاب المقدس يرتبط بالانسان نفسه ، إذ أن وراء آياته معنيين : أحدهما المعنى الظاهري أو التفسير الحرفي . والآخر هو المعنى العميق الروحي الذي لا يصل اليه الا الخاصة . وقد أثارت آراؤه هذه خاصة فكره عن الله ، جدلا كثيرا حتى أنقرن السادس الميلادي ، فالله عنده خالق منذ الأزل وليس في زمان بعينه والا عد ذلك تغيرا في ذات الله والتغير ليس من صفاته . والله الأزلي خلق أو ولد كلمته « اللوجوس » الابن ، الذي على الرغم من كونه ليس الها حقا ، إلا أنه يشارك في جوهر الاب . والابن في رايه هو العقل المنظم للعالم ، خلقه الله وجعله له تاليا ، وكذلك الروح القدس يأتي في مرتبة تالية شأن الابن ، ولا شك أن اللاهوت الأفلاطوني واضح كل الوضوح في هذه الافكار ، وهى نفس الأسس التى بنى عليها آريوس السكندري معتقداته في القرن الرابع الميلادي .

وازدهرت على يد رجلها المقتر يوحنا ذهبي *Johannes Chrysostomos* (٣٤٥ — ٤٠٧) الذى كان تلميذا للفيلسوف الانطاكى الكبير ليبيانوس *Libanius* (٣١٤ — ٣٩٣) ، وامتد أثرها بصورة واضحة الى آسيا الصغرى وبلاد اليونان .

وحتى القرن السادس كانت الافلاطونية والارسطية تستبقان ، وان كانت الافلاطونية قد لاقت رواجاً كبيراً حتى اوائل القرن الخامس تقريبا ، وصبغت اللاهوت المسيحى بصورة واضحة ، ووجدت سبيلها ايضا بين بعض الرهبان الذين كانوا يسمون انفسهم « فلاسفة » (١) ، ثم راحت تتوارى لتحل الارسطية مكانة عالية ولعل ذلك يعود من ناحية الى الهجوم الذى شنه آباء الكنيسة على الفكر الاوريجنى — السكندرى الافلاطونى بصورة مستمرة وعنيفة طوال القرنين الخامس والسادس ، ومن ناحية أخرى الى دخول الاسكندرية تحت السيادة الاسلامية فى القرن السابع مما اتاح الفرصة للفكر الارسطى للذوبوع خلال القرون التالية ، وتمثل بصورة خاصة فى أعمال ماكسيموس المعترف ويوحنا الدمشقى .

لا شك اذن فى أن المسيحية فى اصولها وتاريخها الباكر كانت على علاقة وثيقة ببلاد اليونان . ولما كان ما يعرف بعالم المسيحية لفترة تزيد على الالف سنة ، منذ مال قسطنطين الى تأييد المسيحية فى اوائل القرن

(١) انظر C.M.H.IV, 2, 195 ورغم اغراق بسلوس نفسه فى الحياة «الرغيدة» كما كان يحلو له أن يسميها ، ويعنى بها حياة البلاط ، الا أنه كان ذئ نزعاً تصوفية فى بعض الاحيان ، وعلى الرغم من أنه لم يستطيع مع الرهبانية صبرا عندما حاول أن يسلك دربها ، لأسباب سياسية ، الا أنه كان يبدو معجبا بهذه الحياة ، ويتعبير ادق « من بعيد » ولعل هذا يصدق تماماً فى بواكير حياته وقبل أن يجرفه تيار « الرغد السياسى » اذا صح هذا التعبير . ونلمس ذلك فى حديثه عن الفلسفة واصحابها وقبل أن يصبح أستاذا لكرسيها فى جامعة القسطنطينية ، يقول : « انى على يقين من أن الرجل « ميخائيل الرابع » كان نموذجاً يحتذى فى التقوى بعد اعتلائه العرش ، ليس فقط بسبب اقدمائه على اقامة كنيسة ، ولكن لأنه أعطى اهتماماً خاصاً للفلاسفة ، ولا أعنى بالفلاسفة أولئك الذين يحاولون التوصل الى معرفة حقائق الكون ويهملون مبادئ خلاصهم ، ولا أولئك الذين يعملون فكرهم فى ماهية الكون ، ولكن أعنى هؤلاء الذين يحتقرون العالم ويعيشون مع الكائنات فوق هذه الدنيا » . انظر Chron. IV, 34.

الراسع ، مجتمعاً يتكون بصفة خاصة من شعوب تستمد نظمها الثقافية وتقاليدها الفكرية ، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، من الثقافة اليونانية - الرومانية للعالم القديم ، فإنه ليس من المبالغة في شيء القول بأن فلسفة العالم المسيحي في تلك القرون قد تشربت بعمق نظم وأفكار العقل اليوناني ، والمعتقدات غير المسيحية خاصة أفكار الفلاسفة الوثنيين ، بحيث يمكن اعتبارها بصفة مؤكدة امتداداً طبيعياً للفلسفات القديمة (١) . وبحيث يمكن القول أيضاً بأنها تبلورت بشكل واضح لتصبح « فلسفة مسيحية » في القرن الثالث عشر على يد توماس الاكوينى Thomas Aquinas ، أما في القرون السابقة على هذا القرن فمن المفضل أن نطلق عليها « مسيحية مفلسفة » .

ورغم أن الأفلاطونية الأوريجينية قد لقيت العنت كثيراً ، إلا أن الفكر الأفلاطوني في صورته الكلاسيكية ، أو بنمطه الجديد في الأفلاطونية المحدثه كان له مريدوه . ومرد ذلك الى أن أفلاطون كان قد أصبح بالنسبة لكل الأجيال التالية المصدر والنموذج لأولئك الذين يتوقنون الى الحقيقة المطلقة التي يمكن أن يعزى اليها كل شيء (٢) . ومن ناحية أخرى فإن أفلاطون هو ذلك المثالي الذي صاغ هذه الحياة ونظمها في « مدينة فاضلة » . بينما أرسى أرسطو الواقعي ، بقدمه الراسخة على الأرض في دولة المدينة اليونانية ، خطوط الحياة السعيدة المثمرة فوق هذه الأرض . وأفلاطون كان واحداً من أعظم المفكرين الذين ينشدون الفضيلة . فكثير من كتاباته يتعلق بهذه الناحية . ولقد كانت الحياة بالنسبة له تمثل صراعاً بين الخير والشر ، ومن ثم كان لابد أن يتقبل - باعتباره فيلسوفاً - القول بأن من يكسب العالم ويخسر الروح ، فقد خسر خسرانا مبيهاً . أما أرسطو فقد كان نصيب العقيدة عنده أقل ، والله أقل أهمية من المسلمات الميتافيزيقية (٣) .

Knowles, the evolution of medieval thought, P. 3. (١)

وراجع أيضاً : موس : ميلاد العصور الوسطى ، مترجمة عبد العزيز جاويد ، ص ٣١ - ٣٣ .

Knowles, op. cit. P. 5. (٢)

Ibid. PP. 5 — 6 (٣)

ولقد اقترب أفلاطون كثيرا فيما يتعلق بالنظرة العامة للحياة والفرد
الانسانى مما هو موجود فى المزامير العبرية أو النسخ المسيحية ، وليس غريبا
أن تعد محاوراته عن خلود الروح شيئا أساسيا بالنسبة للأباء المسيحيين
المدافعين عن العقيدة ، بل ليس غريبا أيضا اعتباره من جانب بعض آباء
الكنيسة الأولى ، مسيحيا قبل المسيحية أو اعتباره واحدا ممن أخذوا بعض
آرائهم اللاهوتية عن العهد القديم . لقد بدا للبعض فى معتقده عن العتل
الالهى أنه يرمز الى المعتقد المسيحى عن « اللوجوس » أو « الكلمة الابن » (١).
وقد كتب يوحنا موروبوس **Mauropous** أستاذ بسللوس وصديقه :
مقطعا شعريا يتوسل فيه الى المسيح أن ينظر بعين العطف الى كل من أفلاطون
وبلوتارخ ، حيث كانت عقيدتهما قريبة جدا الى تعاليم الانجيل (٢) .

من هنا كان اهتمام بسللوس بأفلاطون وفكره والانفلاطونية المحدثه،
ومن ثم راحت هذه فى زمانه تتحدى سيطرة الفلسفة الأرسطية . لقد كان ينظر
الى أرسطو على أنه مجرد بداية أساسية لدراسة المنطق والطبيعة ، ولكنه
جعل اهتمامه الأساسى بالانفلاطونية لأنها فى رأيه تعد الدليل الحقيقى
لدراسة الميتافيزيقا التى تعتبر قمة الدراسات الفلسفية ، والتى لا بد أن
تقود بالضرورة فى نهاية الأمر الى المعرفة اللاهوتية ، ومن ثم فانه لا يختلف
عن أسلافه الذين درسوا الفلسفة كمقدمة لابد منها لتعميق الفكر والجدل
اللاهوتى ، ولهذا فانه لما تحدث عنه صديقه يوحنا اسيفيلينوس فى نعمة
تحمل طابع النقد حول تعلقه « بأفلاطونه » الى حد كبير جدا ، كان
بسللوس على استعداد للاعتراف بأن الفلسفة التى هى التاج الذى يزين
مفرد الدراسات العلمانية ، لا يمكن أن تعد فى ذاتها شيئا ذابال ، ولكنها
مجرد اعداد للدراسات اللاهوتية . ولا ريب أن هذا الاتجاه كانت له
آثاره البعيدة من حيث احباط التفكير الفلسفى الخالص فى كثير من الأحيان (٣) .

Ibid. p. 11

C. M. H. IV, 2, P. 196 .

(١) انظر : العالم البيزنطى ص ٣٤٣ — ٣٤٤ ، وأيضا :

C.M.H. IV, 2, P, 245,

Chron. III, 3

وقارن

والحقيقة أن بسللوس كان افلاطونيا محدثا متطرفا ، وهذا يبدو واضحا في احدى محاوراته مع الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس ، عندما راح يحدثه عن « العلة الاولى ، عن الخير المطلق وعن الفضيلة ، عن الروح ، ويبرهن له كيف أن الروح يمكن أن ترى في الجسد ، وكيف يمكن أن تهفو خارجه وان كانت في الوقت ذاته متصلة به » (١) وقد ترك هذا أثره دون شك على معالجته للاهوت المسيحى حين يذكر أنه « اذا كنت أتفق مع آباء الكنيسة الاول في بعض المسائل المتعلقة بقانون الايمان ، فانى من ناحية أخرى توصلت بفكرى الى بعض الآراء المغايرة فيما يتعلق بالتجسد » (٢) .

ولم يكن بسللوس راضيا عن ذلك الاتجاه الدينى المتطرف الذى يقوم عليه آباء الكنيسة والرهبان من ذوى الفكر المنفلق ، متمثلا في الاصرار على سمو الأمور العقيدية باعتبارها مسلمات ، على العقل الانسانى . ويقول : « لقد سمعت عن فلاسفة مبرزين قولهم ان هناك حكمة او معرفة عليا تسمو على كل الأدلة ، وهذه يمكن ادراكها فقط بعقل رجل فطن في لحظة من لحظات الالهام » (٣) ويظهر سخطه هذا أيضا في عدم اصطباره على حياة الرهبانية ، مع ادخال العوامل الأخرى التى ذكرناها آنفا في الاعتبار ، بينما وجد صديقه اكسيفيلينوس نفسه في حياة التأمل ، وأبدى — امتعاضه لانتزاعه من الدير ليعتلى عرش القسطنطينية الاسقفى سنة ١٠٦٣ . وقد أدى موقف بسللوس هذا وآراؤه العقيدية الى اتهامه بالهرطقة ، غير أنه تمكن من التخلص من هذا الاتهام باعتراف سطحي تلفيقى بالارثوذكسية قبلته منه الكنيسة (٤) . بينما فشل تلميذه وخلفه على كرسي الفلسفة في الجامعة ، يوحنا الايطالى ، في تدبيح مثل هذا الاعتراف ، مما أدى الى دخوله في صراع مع السلطات الكنسية والزمنية في القسطنطينية ، وانتهى الأمر بادانته وحرمانه على عهد الامبراطور الكسيوس كومنينوس (١٠٨١ — ١١١٨)

Chron. VI, 197

(١)

Ibid. 42.

(٢)

Ibid. 40

(٣)

C.M.H. IV, 2, PP. 82, 245

(٤)

وايضا : العالم البيزنطى ص ١٦٧ — ٢٦٨ .

والحقيقة أنه رغم الشهرة العريضة التي حققتها بسللوس في النواحي الفكرية ، إلا أنه لم يسمع به خارج الدوائر الثقافية البيزنطية ، وهذا هو شأن فلاسفة الأفلاطونية البيزنطيين بصفة عامة (١) .

ولقد كان بسللوس يهتم اهتماما بالغا باختيار كلماته وتنميق عباراته حتى في كتاباته الفلسفية ، الى الحد الذي لم يكن يفصل بين الموضوع الفلسفي والمقال البياني وينحى باللائمة على أولئك الذين ، رسون البيان بينما يحتقرون الفلسفة ، فهذه في نظره ليست أقل اهتماما بتدبيح الكلمات من انبيان . ومن ثم فانه حسب قوله عندما يعد خطبة فانه يقدم البراهين والادلة العلمية مع الكياسة المقبولة . وقد تعرض للنقد واللوم من جانب البعض الذين يكرهون الطريقة التي يبدع بها المقال — الفلسفي بفن البلاغة الرقيق ، ولكنه يدفع عن نفسه هذا النقد مبينا أن هدفه الأساسي من وراء ذلك هو مساعدة القارئ عندما يجد من الصعب عليه استيعاب الأفكار الفلسفية العميقة ، وحتى لا يفقد سياق الحوار الفلسفي (٢) .

وبسللوس يعتز بفصاحته وبلاغته وحسن بيانه ، اعتزازه بثقافته وسعة اطلاعه وفلسفته . فعندما وجد من الامبراطور قسطنطين التاسع اعراضا عن حديث الفلسفة ، « واحسست رغبته في تغيير موضوع المناقشة ، كان على أن اتحول الى البلاغة عروس الشعر والأدب ، وأن أقدم له جانب آخر من جوانب تفوقى » مدخلا على نفسه البهجة بكلمات ايقاعية « (٣) . ويستطرد : « ان أهم ما يميز لغتى رقتها والعذوبة ، ورغم أنى لا ألهم من أجل وقع كلماتى على سامعيها ، فان حديثى به رنة جمال طبيعي ، وهذا شيء لم أكتشفه في نفسى بل قاله لى كثيرون وأنا أحاورهم ، وذلك ان أحدا منهم لم يكن يصغى الى بفكر شارد ، وكيفما كان الأمر فان تلك الصفات كانت أول ما قربنى من الامبراطور ، وكانت طلاقة لسانى تعطيه احساسا بما هو فى أعماق نفسى كامن . . لقد تملك قسطنطين عند لقائى الأول معه شعور غريب بالبهجة على نحو مبهم غامض شأن منطوق الوحي الالهى ، يخرج من بين

C.M.H. IV, 2, P. 373

Chron. VI, 41

Ibid. 197.

(١)

(٢)

(٣)

شفّتى رجال احتوتهم غيبوبة التجلى . وقد وضع تأثير كلماتى عليه مباشرة،
فما أن سمع صوتى حتى كان قاب قوسين أو أدنى من عناقى ... ان عين
قسطنطين لم تنزع على قبل اعتلائه العرش ، ولكنه ما أن رأى حتى أخذ
بنفساحتى وبدا كما لو كانت أذناه قد علقت بشفتى «(١)» .

ولم يقف حد الاعجاب ببسلوس عند قسطنطين التاسع وحده ،
بل نعداه الى جملة الأباطرة الذين خلفوه ، فيخائيل السادس « تذوق العسل
ينساب من بين شفتيه »(٢) ، واسحق كومنينوس « يحمل لحديثه كل الاعجاب
والتقدير »(٣) وتعلق به قلب قسطنطين العاشر لفرط ولعه بالبيان
« وارتوى من نبعه حتى سكر وكانت كلماته له هى ماء الحياة أو شراب
الآلهة(٤) أما يودوسيا فكانت تنظر اليه نظرتها الى اله »(٥) .

والحقيقة أن لغة بسلولوس فى الحديث أو الكتابة ، كانت تأخذ بالاسماع
والألباب ، فهو يختار عباراته بدقة موفقة ، ويستخدم التورية الذكية .
وكان من بين الكتاب البيزنطيين القلائل الذين كتبوا باليونانية الكلاسيكية ،
ولغته تعد لفظة حية طبيعية وغير مصنعة على العكس من تلك الكتابة
التي أعجبت به فيما بعد ، الأميرة المتحلقة أناكومنا التي تعتمد الصنعة
اللفظية فى كتابتها (٦) . ومما لا شك فيه أن سحر بيانه وفصاحته وذكاءه
ولماحيته ، أدت كلها دورها بمهارة عالية وكفاءة فطنة فيما ذهب به
بسلوس من قدرة على البقاء فى كنف البلاط الامبراطورى المتقلب قرابة
الأربعين عاما .

Ibid. 45 — 46, 161

(٧)

Ibid. VII, 16

(٢)

Ibid. 42

(٣)

Ibid. VII, CONST. X, 7, 25.

(٤)

Ibid. VII, Eudocia, 1 — 9

(٥)

C.M.H. IV, 2, P. 230 انظر (٦)

Baynes & moss, op. cit. p. 256

Fourteen Byzantine Rulers, introd. p. 18

وكذلك :

وإذا كنا قد تناولنا حتى الآن بالحديث بسلوس السياسى الأريب ، والبيانى المفوه ، والفيلسوف ، فان بسلوس المؤرخ لا يقل عن هؤلاء جميعا شهرة واقتدارا بل ربما فاق تاريخه تفلسفه ، اذ يكاد يكون هناك شبه اجماع بين الدارسين البيزنطيين على أن « التاريخ الزمنى » Chronographia الذى وضعه بسلوس يحتل مكانا مرموقا وسط الكتابات التاريخية فى العمود الوسطى ، وبغض النظر عن قيمته الحقيقية فى حد ذاته باعتباره مذكرات شاهد عيان على قدر كبير من الثقة والذكاء ، فانه لا يمكن أن ننكر كونه عملا ثانيا رائعا (١) ونستطيع للوهلة الأولى ومن المقارنة الظاهرية فقط بين « التاريخ » Historia الذى وضعه سلفه ليو الشماس و « الألكسياد » Alexiad الذى كتبه خالفه أناكومننا ، من ناحية ، و « التاريخ الزمنى » مؤلف بسلوس من ناحية ثانية ، أن نتبين طبيعة هذا العمل التاريخى وخصائصه ، فالأول تحدث عن مرحلة من مراحل الحرب البلغارية على عهدى نيقتور فوقاس ويوحنا تريمسكس وهى الفترة الواقعة بين عامى ٩٥٩ — ٩٧٥ . وتعود أهميته الى أنه يكاد يكون المصدر اليونانى الوحيد عن أحداث هذه الحرب . والثانى يتناول عهد الامبراطور الكسيوس كومننوس (١٠٨١ — ١١١٨) . أما عمل بسلوس فيتناول بين الاطناب والايجاز عهد أربعة عشر امبراطورا يمتد حكمهم الى قرن كامل (٢) . فإذا علمنا أن باسل الثانى وحده يحتل من هذا القرن نصفه (٩٧٦ — ١٠٢٥) أدركنا على الفور أهمية الفترة التاريخية التى يعالجها المؤلف ، وبالتالي قيمة الكتاب ، خاصة وأن هذه الفترة — كما ذكرنا — تمثل منعطفًا خطيرا فى عمر الامبراطورية البيزنطية ، ويزيد من

Fourteen byzanting rulers introd. p. 15. (١)

(٢) هؤلاء الاباطرة هم باسل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥) ثم قسطنطين الثامن (١٠٢٥ — ١٠٧٨) فرومانوس الثالث (١٠٢٨ — ١٠٣٤) فيخائيل الرابع البافلاجونى (١٠٣٤ — ١٠٤١) فيخائيل الخامس (١٠٤١ — ١٠٤٢) فالعهد المشترك لثيودورا وزوى (١٠٤٢) قسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ — ١٠٥٥) فيثودورا منفردة (١٠٥٥ — ١٠٥٦) فيخائيل السادس ستراتيوتيكوس (١٠٥٦ — ١٠٥٧) فاسحق كومننوس (١٠٥٧ — ١٠٥٩) قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ — ١٠٦٧) فيودوسيا (١٠٦٧) فرومانوس الرابع ديوجينيس (١٠٦٨ — ١٠٧١) ثم ميخائيل السابع دوكاس (١٠٧١ — ١٠٧٨) .

هذه الأهمية مشاركة بسللوس — على النحو الذى رأينا — فى الحياة السياسية ومعايشته للبلاط البيزنطى على عهود تسعة من أباطرة هذه الفترة . والكتاب من ناحية أخرى يمثل استكمالا طبيعيا لـ « تاريخ » ليو الشماس دون انقطاع ، ومدخلا تلقائيا لـ « الكسياد » أناكومنا .

قسم بسللوس تاريخه الزمنى الى كتب سبعة ، اختصت الستة الأولى منها بالأباطرة الآخرين للأسرة المقدونية ، ابتداء بباسل الثانى منذ توليه العرش عام ٩٧٦ ، وانتهاء بثيودورا الابنة المسنة لقسطنطين الثامن ، وآخر سلالة البيت المقدونى ، والتي بموتها ينتهى الكتاب السادس ، مروراً بالأباطرة الذين انتموا لهذه الأسرة وهم أزواج زوى الثلاثة ، رومانوس الثالث وميخائيل الرابع وقسطنطين التاسع ، وابنها بالتبنى ميخائيل الخامس . والكتاب السادس وحده يمثل الجزء الرئيسى فى هذا المؤلف بصفة عامة ، اذ يحتل وحده ثلث صفحات الكتاب ، بينما يشغل الكتاب السابع والآخر الثلث الثانى الذى يعد أباطرته مرحلة انتقال بين البيت المقدونى والأسرة الكومنينية و « التاريخ الزمنى » لبسللوس بصورته هذه يختلف تماماً عما جرت العادة باتباعه فى كتابة التواريخ الزمنية ، فقد جرى مؤلفها على كتابة « تواريخهم » هذه ببداية الخليقة أو على الأقل بميلاد المسيح ، مستمدين معلوماتهم عن ذلك الزمن السحيق من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . أما بسللوس فقد خرج عن هذه القاعدة وإن لم يكن أول من أقدم على ذلك .

وباستقراء تاريخ بسللوس يتضح أن الكتب الستة الأولى والفصلين الأولين من الكتاب السابع ، كانت هى « التاريخ الزمنى » فى صورته الأصلية ، أو بتعبير آخر ، حسبما خطط له صاحبه . فهو يذكر فى الفصل الثانى من الكتاب السابع ، وقد خص به اسحق كومنينوس ، أنه سيعرض لسياسة الامبراطور ومحاولاته العديدة للقضاء على الفساد الادارى والمالى فى الدولة ، وكيف منيت هذه الجهود كلها بالفشل ، ويقول : « وعندما أتم ذلك فسوف اضيف تقريراً عن نهائية عهده ثم أنهى تاريخى » (١) ويتبع هذا فعلاً باستعراض

ملخص وسريع لكل الأباطرة الذين تناولهم بالحديث سابقا ابتداء بباسل الثانى وخلفائه جميعا وانتهاء باسحق ، وكأنها خاتمة يوجز فيها ما فصله على صفحات مؤلفة من قبل ، وليتقارن بين جهودهم وأعمال الامبراطور اسحق فى تقريره النهائى الذى وضعه عن سياسته (١) . ولما كان هذا الجزء من المؤلف يتسم فى جملته الى حد كبير بالموضوعية ودقة الملاحظة والنقد الجاد أحيانا ، فمن المحتمل أن يكون قد وضع فى عهد قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ — ١٠٦٧) . ويعود هذا الاحتمال الى أن الأمور كانت قد استقرت بالنسبة لبسلوس وصفا له الجو تماما ، فالامبراطور صديقه الحميم « وقد حصل فى كنفه على مرتبة سامية » وهو أحد زملاء الدراسة لدى استاذهما يوحنا موروبوس ، وصديقه قسطنطين ليخودس هو أسقف العاصمة . ومن ثم فقد وجد بسلوس لديه الفرصة السانحة لكتابة تاريخه هذا بأناة وروية (٢).

أما الجزء الثانى وهو الذى يتضمن الفصول الأربعة الأخيرة من الكتاب السابع والذى جاء آخره مبتورا ، فيبدو أنه كتبه على عهد تلميذه ميخائيل السابع ، فهو يطلب الى قرائه أن يثقوا فى صدق حديثه وأن لا يتطرق الشك الى عقولهم فى كلماته هذه لأنها كتبت على عهد الامبراطور ، « ذلك أن السبب الرئيسى الذى دفعنى الى أن آخذ على عاتقى مهمة كتابة هذا التاريخ هو أن هذا الانسان يفوق كل من عرفناهم من قبل » (٣) . ويبدو أيضا أن هذا الجزء كتب على عجلة وعلى سبيل التذليل على الكتاب الأسمى ، حيث نجد بسلوس فى كل فصل من فصوله يذكر أنه سوف يتحدث عن هذا الامبراطور أو ذاك « بصورة مختصرة » أو « حسبما تسمح المساحة » وهكذا . وهو يختلف أيضا عن بقية المؤلف فى كونه يعد تقريرا مستمرا للأباطرة

Ibid. 52 — 65

(١)

(٢) يميل سوتر Sewter فى تقديمه لترجمة « التاريخ الزمنى » الى

تحديد عام ١٠٦٣ زما لتأليف هذا العمل .

Fourteen byzantine rulers, introd. p. 15

انظر :

Chron. VII, Mich. VII, 1

(٣)

الذين شغلوا هذه الفترة ، باستثناء رومانوس الرابع ، ولهذا فهو يبتعد عن الموضوعية بصورة واضحة عنه في الجزء الأول .

ويمكننا أيضا من خلال هذا الاستقراء أن نقسم « التاريخ الزمني » الى اقسام ثلاثة من حيث القيمة المصدرية . فهو يفتح الكتاب الثالث بالتصريح بأن روايته منذ الآن سوف تكون أكثر دقة من ذي قبل ، ويعلل ذلك بأنه كان في السابعة من عمره عندما مات باسل الثاني ، بينما أنهى قسطنطين الثامن حياته وهو في العاشرة ، ويقول : « ولم تتح لى فرصة رؤيتهما مطلقا ولم أسمع لحدِيثهما أبدا . وحتى لو كنت قد رأيتهما فانى لا أملك المقدرة على الحديث عنهما ، فقد كنت صغيرا الى الحد الذى لا أستطيع معه ان أذكر عنهما شيئا . غير انى رأيت رومانوس الثالث وتحدثت اليه ذات مرة ، ولهذا كان طبيعيا أن تكون ملاحظاتي وتعليقاتى على الامبراطورين الأولين مستمدة من الآخرين ، بينما روايتى عن رومانوس صادرة عنى مباشرة » (١) .

ولكنه يذكر فى موضع آخر فى معرض حديثه عن العلاقة بين رومانوس الثالث وزوجه زوى وعشيقها ميخائيل (الرابع فيما بعد) أنه استقى معلوماته هذه من أحد الرجال المقربين لدى القصر ، والذى كان يعرف الكثير من أسراره . ويضيف أن لديه رواية أخرى عن هذه الأحداث (٢) . وهذا يدل على أن بسلولوس لم يكن قد أصبح بعد « مقربا » للقصر . وقد علمنا أنه بدأ عمله فى البلاط سكرتيرا لميخائيل الخامس من بعد . وعليه يمكن القول بأن بسلولوس استمد مادته التاريخية للكتب الأربعة الأولى من المعبرين ورجال البلاط وأصدقائه السياسيين ، ومن ثم جاءت معلوماته خلالها سطحية وغير مكتملة اذا ما قورنت بالكتابين السادس والسابع . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك أن عهد باسل الثانى الذى استغرق من الزمن نصف الفترة الزمنية لتاريخ بسلولوس ، أعنى خمسين عاما ، لم يكن حظه

Ibid. III, 1

(١)

Ibid. 23

(٢)

من صفحات هذا العمل يزيد عن نصيب ميخائيل السادس الذى لم ينعم من العرش الا بسنة واحدة . وبينما كان باسل الثانى واحدا من أعظم أباطرة الأسرة المقدونية والامبراطورية على الاطلاق سواء فى النواحي المدنية أو العسكرية ، فان ميخائيل السادس لم يخلف للتاريخ الا اسمه ! .

أما القسم الثانى فيشمل الكتب الثلاثة من الخامس الى السابع فيما عدا الفصل الأخير ، وفيها كانت معلوماته ضافية وتعليقاته واضحة وتحليله على جانب كبير من الدقة والموضوعية . فقد غدا بسللوس أحد أقطاب العمل السياسى فى الامبراطورية وهو يذكر فى أوائل الكتاب السادس « أن حديثه عن الأحداث التالية سوف يكون مصدريا تماما لأنه نتيجة معرفة شخصية جدا » (١) . ولا يكاد يخلو فصل من فصول هذا القسم من عباراته الشهيرة « رأيت ذلك بنفسى وعينته بشخصى » أو أنه وحده « الذى يعرف ذلك دون الآخرين » أو أن « مصدرى فى هذه الرؤية لا يرقى اليه أشك » (٢) . وهو يعتبر الجزء الرئيسى فى تاريخ بسللوس . أما الفصل الأخير من الكتاب السابع وهو انذى يمثل القسم الثالث ، فقد أضاف بسللوس الى اعتماده المطلق على شخصه فى رواية الأحداث التاريخية باعتبار نفسه المصدر الرئيسى لها ، تقريرا أو بتعبير أدق مذكرات وضعها ميخائيل السابع دوكاس عن نفسه . ذلك أن الامبراطور ما أن علم بأن بسللوس على وشك كتابة ترجمة عن حياته ، حتى طلب أن لا يفعل ذلك حتى يزوده بتصوير عام عن شخصيته ، ثم ان السكرتير الخاص للامبراطور راح يقرأ على بسللوس ما أملاء عليه ميخائيل السابع » (٣) . ومن ثم فان هذا القسم جاء قصيدة نظمها بسللوس والامبراطور معا لمجد الجالس على العرش .

Ibid. IV., 10

(١)

Ibid. IV, 4, 12, 25, 27, 38, 50; V, 3, 10, 22, 25, 26, 27,

(٢)

VI, 10, 77, 93, 100; VI, Theod. 19; VII, 46, 71.

Chron. VII, II

(٣)

وأصدق بما يمكن أن يطلق على عمل بسللوس هذا هو « تاريخ البلاط »
 فبسللوس وقد مكنته مناصبه من ذلك ، يتحدث في تفصيل دقيق في كثير من
 الأحيان عما يجري خلف أستار القصر الامبراطورى ، ورغم أنه صرح ذات
 مرة بأنه سوف يتحدث عن « الجيوش والمعسكرات والمناوشات والمعارك
 وكل صغيرة وكبيرة اعتاد المؤرخون الثقات ذكرها » (١) ، وأضاف أنه « ليس
 من سمات المؤرخ أن يضيع وقتا في الحديث عن الصفات الدقيقة التى
 تتعلق بأمر شخصية بحتة ، بل يجب أن تكون مهمته الرئيسية هى تركيز
 فكرة وكتابته حول الموضوع الذى يعالجه ، وأن يتناول الأمور الأخرى
 بشئ من التحفظ » (٢) . الا أنه عاد بعد ذلك ليقول أنه « فيما يتعلق
 بالشئون العامة للدولة فانى سوف أتركها لكثير من الكتاب الآخرين الذين
 يرغبون في تدوين مثل هذه الأمور » (٣) . وقد التزم بسللوس فعلا بقوله
 الأخير هذا ، فقد أعرض عن ذكر الحرب البلغارية التى شغلت من عهد
 باسل الثانى قرابة ربع القرن وهو لا يذكر شيئا عن هزائم قسطنطين التاسع
 أمام البشناق وابتياح السلم منهم بثمان باهظ . أما الحملات التى قادها رومانوس
 الرابع ديوجينيس ضد الأتراك السلاجقة فلا يحدد لها زمانا ولا مكانا ،
 ولا يذكرها الا من قبيل السخرية بجهل الامبراطور في الشئون العسكرية
 والتندر على خططه الحربية . ويعلق سوتر على ذلك بقوله ان جغرافية
 كتابه كانت غامضة (٤) .

وحتى الشئون الداخلية فانه قد تركها وشأنها فلم يحدثنا بشئ عن
 الاجراءات الاقتصادية والتشريعية التى اتخذها باسل الثانى فيما يتعلق
 بأملاك الكنيسة والأديرة ، ولا الاجراءات النقدية التى أدت الى تخريب
 الاقتصاد البيزنطى على عهد قسطنطين التاسع ، ولا جهود هذا في إعادة
 تنظيم الجامعة ، وأخفق أيضا في تسجيل أخبار الاوبئة والمجاعات والزلازل

Ibid. VI, 73

(١)

Ibid. 70

(٢)

Ibid. 167

(٣)

Fourteen B. R. Int. P. 13

(٤)

التي اولاهما غيره جزءا من اهتمامهم (١) . ولكن هذا لا ينفي أنه ذكر بتفصيل دقيق حركات التمرد أو الثورات التي قامت في داخل الامبراطورية ضد هذا الامبراطور أو ذاك (٢) . أو أنه أفاض بأسلوب فنان في وصف الكنائس الفخمة التي اقيمت على عهد رومانوس الثالث وميخائيل الرابع وقسطنطين التاسع (٣) ، والحقيقة التي لا مرأ فيها أنه اذا اعتبرنا الكتاب فعلا تاريخا للبلاد بكل أسرارها ومتاهاته وخباياه ، فإنه يعد من هذه الناحية عملا فنيا وأدبيا رائعا يتفوق على الكثير من أمثاله في هذا الميدان .

ولنترك القلم الآن لبسلوس ليكتب بنفسه الدوافع التي حدثت به الى تأليف كتابه هذا ، والظروف التي أحاطت به ، ورايه فيما يذهب اليه معاصروه ، ونظرتة للتأليف التاريخي :

« وجدت نفسي في مناسبات عديدة وقد أحاط بي الكثيرون وراحوا يستحثوننى كي أكتب تاريخا لهذه الأحداث ، ولم يكن بين هؤلاء رجال الدولة وأعضاء السناتو فحسب ، بل أيضا عدد كبير من دارسى اللاهوت الذين نذروا أنفسهم لتفسير ما غمض من الكتاب المقدس فهمه ، وغير هؤلاء كثير من ذوى الطهارة والقداسة ويتوالى السنين كان طبيعيا أن تصبح الأدلة التاريخية غير متوفرة لكتابة سجل دقيق للأحداث ، ومن الخطورة بمكان أن تتوارى مع الماضى أحداثه ، ومن هذا النسيء تصبح معلوماتنا عن سالف الزمان غير مؤكدة . من أجل هذا طلب الى هؤلاء الصفوة أن أفعل ما وسعنى الجهد لعلاج هذا القصور . وأضافوا قولهم انه من غير المعقول أن تغيب حادثات التاريخ التي نعيشها وتظل غامضة مبهمه ، بينما ما جرى قبلنا تم تدوينه على يد الأجيال المتتالية . تلکم هى الضغوط والدوافع التي استحثونى بها لأقدم على تنفيذ هذه المهمة الجسيمة . غير أنى لم أكن

Id (١)

Chron. I, 10 — 18, 23 — 29; V, 28 — 30, 45 — 50; (٢)
VI, 76 — 86 — 98 — 124; VII, 4 — 43

Ibid. III, 14; VI, 185 — 187 (٣)

متحمسا على الاطلاق للاقدام على ذلك ، ولم يكن هذا راجعا الى تكاسل من جانبى ، بل لانى كنت اضع فى اعتبارى دوما امرين لا يمكن باى صورة التغاضى عن اى منها ، فربما تجاوزت — لأسباب سأوضحها فيما بعد — عن أشياء وقعت بين أفراد معينين ، أو شوهت أو حرفت روايتى عنهم ، ومن ثم فانى سوف ادان لا لانى كتبت عنهم تاريخا ، بل فقط لمجرد التليفيق أو الاختلاق ، كما لو كنت اؤلف رواية . وربما بلغ بى التطرف فى تقصى الحقيقة مداه ، فأصبح بالتالى أضحوكة النقاد ، ذلك أنهم سوف يعتبروننى عندئذ لست محبا للتاريخ بل مروجاً للفضائح !

« من أجل هذا لم أكن شغوفا بتدوين تاريخنا المعاصر ، خاصة وأنى أعلم علم اليقين أننى سوف أختلف فى رأى مع الامبراطور قسطنطين (التاسع) فى كثير من الأمور ، ومن ثم فأننى لابد وأن ألوم نفسى اذا لم أنتهز أية فرصة لامتداحه ولسوف يكون أمرا مخجلا حقا اذا لم أحفظ المعروف لصاحبه . لذا ، وبسبب هذا الرجل بالذات كنت أرفض دوما كتابة تاريخ هذه الفترة . لشد ما كان يؤرقنى أن أعرض عن أى لوم يمكن أن يوجهه اليه ، كما كنت راغبا عن أن تفصح كلماتى عن أعمال ليست فى جانبه وعن أشياء من المفضل أن تظل فى غيابه الكتمان . لشد كانت نفسى تعاف أن أضع أمام العامة قصة غير صادقة ، كما أنى فى الوقت ذاته كنت كارها أن أفترى على بطل كان محل تقريظى وامتداحى . وفى رأى أنه من الخطأ استعراض المواهب الأدبية ، وهى التى اكتمل نضوجها لدى بسبب تشجيعه ، فى الحاق الضرر به » .

ويضيف محاجا البعض معرضا عن مناقشتهم وآرائهم : « ... ومهما يكن من أمر غائه لا يمكننى أن اتخذ من مثل هذه المناقشات مبررا لنكران الجليل أو الجحود ، خاصة مع انسان كرمنى أكثر مما أستحق ورفع فوق كل الاقران قدرى .. لهذا فان كل ما أبتغيه اما أن أخلد ذكراه بالثناء والتقريظ ، واما أن أمر مر الكرام على تلك الأعمال التى وقعت فى عهده ولم تكن صادرة عن نية صادقة ، فاذا ما طرحت جانبا ، وأعطيت انطبعا بئى قد جمعت بها كل ما يوجب التعنيف والتتريع ، فانى سوف أصبح

بذلك أسوأ وغد على وجه الأرض ممثلاً في ذلك ابن ليكسس Lyxes الذي
تخير لتاريخه أقبح الأعمال التي اقترفها الاغريق (١) .

« ومن ناحية أخرى ، هب أنى تركت هذه الخطة جانبا بعض الوقت ،
وأخذت على عاتقى كتابة تاريخ لحياة الإباطرة ، كيف يمكننى أن أتعامل مع
تلك الأمور التى تعتبر موضوعا لمديحى اذا ما أهملت المادة التى تتصل اتصالا
وثيقا بكتابة التاريخ ؟ ان الأمر سوف يبدو وكأنى قد ضللت طريقى ونسيت
هدفى ، أو كأتى مسخت أو شوهت فى كتابة التاريخ وذلك بفشلى فى تمييز المادة
التاريخية الحققة ، أو الخلط بين قاعدة كل من شكلى الأدب اللذين تختلف أغراضهما
تمام الاختلاف كل عن الآخر . والواقع أنى كتبت كثيرا فى مديح قسطنطين قبل
أن أقدم على تنفيذ هذا العمل (٢) . وذلك باستحسان انجميع . وكان مديحى
البالغ الذى خلعتة عليه عز جدارة واستحقاق ، وان كان الآخرون قد أخفقوا
فى فهم منهاجى الذى بنيت عليه قصيدى ، والحقيقة التى لا مراء فيها أن
أعمال الإباطرة تتضمن السوء والحسن ، وهنا يجد الكتاب أنفسهم غير قادرين
على الادانة دون تحفظ أو الثناء بنية صادقة ، ذلك لأنهم قد طبعوا على الجمع
بين الصفات المتنافرة .

« أما الآن وقد رأيت لزاما على أن أكتب تاريخا ، فان هذا المنهج يعد
أمرا مستحيلا ، ذلك أنه لا يمكننى أن أضع نفسى فى موقف من يشوه الحقائق
التاريخية فى الوقت الذى يجب أن تكون فيه الحقيقة أكثر أهمية من أى

(١) تذكر بعض الروايات أن هرودوت هو ابن ليكسس ودريو Dryo
وانه ولد فى هاليكارناسوس Halicarnassus فى عام ٤٨٤ ق.م. وقد تعرض
لنهجوم من جانب العديد من الكتاب الاغريق بدعوى أنه كان متحيزا فى كتاباته
لبنى وطنه من الفرس . غير أنه بالاحتكام الى كتاب De Malignitate herodoti
الذى ينسب عادة الى بلوتارخ Plutarch يمكن القول ان مناقشات
المؤرخين والكتاب حول هذا الرأى عبث لا غناء فيه . انظر :

Fourteen Byzantine rulers, p. 167, n.l.

(٢) نظم بسللوس عددا من قصائد المديح ، وترك حوالى خمسمائة رسالة
ما تزال باقية ، وسبع مرات من بينها واحدة لأمة ثيودوتا تكشف عن مدى حبه
لها وامتنانه من أجل ما قدمته له لاستكمال دراسته . انظر :

Fourteen Byzantine ruler, introd. P. 15

شئ آخر ، حتى أنجو بذلك من تعنيف أو لوم معاصري ، وأن كنت أفضل أن أغض الطرف عن أى اتهام . ان ما أكتبه الآن ليس انهما لأحد ، ولا مادة لاقامة الدعوى ضد أحد ، ولكنه تاريخ حق ... وليس هناك على وجه الأرض انسان بلا خطيئة ، ونحن نحكم على الانسان بمقتضى ميزة خاصة تميزه أساسا عن غيره . لهذا فانى لن أشعر بالخجل وأنا أعلن صراحة ما يمكن أن يكون قد اقترفه ذلك الانسان (قسطنطين) من عسف أو طيش (١) .

« ولقد كان طبيعيا أن تحدونى الرغبة فى أن يكون امبراطورى المفضل نموذجا يحتذى ، حتى ولو كان مثل هذا المديح والثناء مستحيلا بالنسبة للآخرين جميعهم غير أن أحداث التاريخ لا يمكن أن تخضع نفسها لرغائبنا أو تتوافق وميولنا . اذن ... فلتسامحنى هذه الروح السماوية (يعنى قسطنطين) واذا ما جاء حديثى فى بعض الاحيان وأنا أصف عهده بعيدا عن الاعتدال ، واذا لم أحاول اخفاء شئ وذكر الحقيقة كما وقعت ، فليغفر لى ذلك . وليكن على يقين أن ايا من أعماله النبيلة لن تمر هكذا دون ذكر ، بل سوف تنشر كلها ، وبالمثل أيضا كل ما قد يصدر عن غير هذه الروح النبيلة، سوف يكون واضحا فى تاريخى هذا جليا » (٢) .

لو طبقنا ما جاء فى هذا التقرير الذى قدمه بسلولوس على المعايير الحديثة لعلم التاريخ ، لتبين لنا أن بسلولوس قد وضع هذه المعايير أو جها فى كتابته التاريخية الى درجة لا بأس بها امام ناظره ، فهو بادىء ذى بدء يفرق بين العمل الأدبى الخالص الذى قد تداخله المبالغة أو الخيال ، والكتابة التاريخية التى تعتمد المنهج العقلى والتحليل المنطقى . فاذا كان قد رفع الى عليين قدر (امبراطوره المفضل) فى ادبياته الا أنه يخضعه للتحجيص ويضعه تحت منظار النقد التاريخى ، وان كان يستمحه عذرا فى ذلك . وهو يظهر تردده فى البداية واحجابه عن تحمل مسئولية كتابة « تاريخ معاصر » للاحداث لحرمة الكامل على أن يسجل الوقائع التاريخية واسبابها وملابساتها ونتائجها بدقة مناهية ، وخشية أن يتهم لذلك بالتطرف المنهجى .

Chron. VI, 22 — 26

(١)

Ibid 28

(٢)

وهو لا يريد أن يحيد عن الموضوعية الكاملة التى يشترطها البحث التاريخى الجاد ، ولا أن يصبح كاتباً مأجوراً يخط ما تليه أهواء الامبراطور جزاء الاحسان ، بل يبتغى كتابة « تاريخ حق » (١) ، « لأن من يتصدى لكتابة التاريخ يصبح أقرب الناس شبهها بالقاضى ، لا يراهن ولا يرتشى ، يتناول الأحداث دون ميل لهذا الجانب أو ذاك ، يتبنى فى كتابته سياسة الاعتدال والانصاف ، ولا يقدم فى بداية عرضه مناقشات أو تضايا خادعة من أجل التوصل الى حكم مسبق بالصواب أو الخطأ . بل يعرض لما حدث فى بساطة ونزاهة حتى وان كان قد أصابه ممن يؤرخ لهم ضرر أو نفع » (٢) . ولا ريب أن هذا القول يتفق كل الاتفاق ومعايير علم التاريخ ، وهو من أجل هذا يضع أمامنا تصويره للمناهج الذى يجد المؤرخ الموضوعى نفسه ملزماً باتباعه ، وفى الوقت ذاته خطوات البحث التاريخى :

« . . . ان مناهجى الذى اتبعه دائماً لا يقوم على أساس فحص الحادثة فى حد ذاتها بمعزل عن الأحداث الأخرى ، سواء بدا ذلك حسناً أم شراً مستطيراً ، ولكن تقصى الأسباب واستقراء النتائج المحتملة خاصة اذا كان من ينقلون المعلومات يهتمون بالمناقشات الافتراضية . وقد برهنت التجربة على أن هذه المعالجة المنظمة أفضل ربما بكثير مما ينفق عليه خلفائى (٣) ، ان تاريخى لا بد أن يكتب بطريقة منهجية ، فأتى فى المقدمة بمصادر الرئيسة ، وأتت بغرلة وتمحيص رواياتى ، وفى النهاية أورد الأحداث متتابعة . وأستطيع أنؤكد الآن أن أدلتى وحججى سوف تبتعد عن كل ما هو زائف . وكل ما لم يفصح عنه سوف يظل سرا خفياً . ولكن لن تكون هناك واقعة واحدة مما أسوقها يمكن أن تطرق اليها الشك » (٤) .

ويمكن القول بأن بسللوس قد صدق وعده الى حد كبير والتزم منهجه فى الكتابين الخامس والسادس والفصلين الأولين من الكتاب السابع ، فهو

Ibid. VI 5

(١)

Ibid. VI 161

(٢)

Ibid. VI 30

(٣)

Ibid. 46. يقول أنه قبل أن يضع ثقته فيما يسمع ، فإنه

Chron. IV, 33. أنظر : يجعل دائماً كل الروايات تحت الاختبار الدقيق .

يركز دائما على القبول بأنه رأى بعينى رأسه باعتبار نفسه المصدر الرئيسى لكتابه ، وهو يعرض أحداثه وينتقد ويدلى برأيه ويقدم أدلته والبراهين . أما الكتب الأربعة الأولى فلأنه لم يكن شاهد عيان لأحداث زمانها فقد حاول جاهدا أن يلتزم بما فرضه على نفسه وإن لم يكن نجاحه فى ذلك كبيرا . على حين أصبح المنهاج التاريخى فى بقية الكتاب السابع ، خاصة فصله الأخير ، نسيا منسيا .

ولما كان « التاريخ الزمنى » كما بينا يتناول تاريخ أربعة عشر امبراطور ، ولما كان قسطنطين التاسع « بطل » (١) هذا التاريخ يحتل وحده ثلث مساحة المؤلف كله ، كان لابد أن يجيء الحديث عن الأباطرة الآخرين مختصرا . وبسللوس نفسه يعترف بذلك موجهها حديثه الى صديقه الحميم ليخودس ، الذى يبدو أنه كان على رأس ائذين استحثوه لكتابة هذا التاريخ ، ويبين له فى الوقت ذاته النمط التسجيلى الذى أرتآه مفضلا على غيره فى كتابته : « ان رغبتك الواضحة ان اقدم تاريخا مختصرا أكثر منه مؤلفا متقنا ، وكى ألتقى مع رغباتك فقد تجاوزت فى تاريخى هذا عن كثير من الحقائق التاريخية الجديرة بالذكر . ولم أحسب السنين تبعا للأولمبياد (٢) ، ولم أقسمها الى فصول كما فعل ثوكيديديس ، ولكنى صرفت انتباهى الى أهم الحقائق التاريخية وكل انواقع التى استطعت اعادة تجميعها عند كتابة هذا التاريخ . وكما قلت فانى لم أبذل أى محاولة لتمحيص وفحص الظروف الخاصة المحيطة بكل حادثة على حدة . ان خطتى بالاحرى هى أن انتهج لنفسى طريقا وسطا بين أولئك الذين سجلوا الأعمال الامبراطورية لروما القديمة من ناحية ، ومؤرخينا المعاصرين من ناحية أخرى . . . ولم ابتغ الاطناب كما فعل الأولون ، ولا سعيت الى محاكاة المتأخرين فى الاختصار المخل ، وذلك خشية أن يصبح مؤلفا بالأحداث يزدحم ، ومخافة أن يسقط منى ما لا بد أن يذكر (٣) .

ولقد سقط من سللوس الكثير فعلا من الأحداث التاريخية ، وسقط

Chron. VI, 71

(١)

(٢) وهى فترة تمتد أربع سنوات تقع بين الاحتفالات التى تخصص للالعاب الأولمبية ، وقد اتخذ منها الاغريق تقويما يؤرخون به أحداث تاريخهم .

Chron. VI, 73.

(٣)

منه أيضا الكثير من أسماء الشخصيات البارزة التي كان لها أثرها الكبير في النواحي السياسية أو بصفة خاصة في الميادين الثقافية في عصره . وقد بينا ذلك في مواضع كثيرة من قبل ، وربما يغفر له ذلك اعتبار عمله « تاريخا للبلاط » كما أسلفنا .

ويوقفنا كتاب بسللوس على عدد من الحقائق التاريخية التي كانت قد أصبحت في بيزنطة أمرا مستقرا ، فالامبراطور البيزنطي كان التقليد قد جرى باعتباره نائبا عن المسيح على الأرض، وإذا كان الإباطرة الرومان والامبراطورية بعد وثنية قد حملوا لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus بل وظل أحد القابهم الرسمية حتى تخلى عنه جراتيان Gratianus (٣٧٥ - ٣٨٣) فان الامبراطور قد غدا بعد تحول الدولة الى المسيحية الأسقف الأعلى ورأس الكنيسة ، واضحى منصبه على قدر كبير من القداسة (١) ، ويختار من قبل الله ليكون مثالا له على الأرض . وتضمن ذلك ديباجة المجموعة القانونية التي صدرت على عهد الأسرة الايزورية باسم الامبراطورين ليو الثالث وقسطنطين الخامس والمعروفة باسم « المختار » Ecloga : « حيث أن الله قد عهد الينا بحكم الامبراطورية ، وقضت بذلك مشيئته . . . » . وتأكد بصورة واضحة في كتاب « المراسم » الذي وضعه الامبراطور قسطنطين السابع في القرن العاشر ، حيث يتضح مدى الارتباط الكامل بين الامبراطور والمسيح . وبسللوس يدعم هذه الحقيقة على صفحات تاريخه . ففي معرض حديثه عن المنصب الامبراطوري ودفاعه عن مسلك الإباطرة المتقلب بصفة عامة دون تحديد الامبراطور بعينه ، وان كان يرمى من وراء ذلك الى الدفاع عن قسطنطين مونوماخوس ، يقول : « . . . لكن الامبراطور ذلك الرجل الذي ورث عن الله السلطة العليا . . . » (٢) ثم يقول عند ارتقاء قسطنطين

(١) للمزيد من التفاصيل عن مركز الامبراطور البيزنطي انظر الفصل الرابع الذي كتبه : J.M. Hussey في كتابها The byzantine world تحت عنوان : « الكنيسة والدولة : الحكومة الامبراطورية . » وقد ترجم الباحث هذا الكتاب الى العربية « العالم البيزنطي » ص ٢٣١ - ٢٥٢ وقارن : موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٥٠ - ٥١ .

المناشر العرش : « ان هذا الامبراطور — والحق يقال » قد اختير من قبل الله » (١) .

ويرتبط بهذه مسألة أخرى على جانب كبير من الاهمية ، وهى الارتباط التام والوثيق بين الدولة والكنيسة ، منذ تبل قسطنطين الأول فى القرن الرابع باغتياب أن يتدخل فى أمور الكنيسة المسيحية والمسيحية ، ومن ثم سار الخطان الدينى والدنيوى متوازيين ، بل أصبحا خطا واحدا كما يعبر عن ذلك سقراط Socrates المؤرخ الكنسى فى القرن الخامس . ولا نكاد نجد امبراطورا واحدا منذ قسطنطين الأول حتى سميهِ الحادى عشر على امتداد ألف ومائة عام ونيف ، الا وقد تدخل فى شئون الكنيسة وأدلى بدلوهِ فيها ، سواء علم من أمر اللاهوت شيئا أو لم يعلم ، وارتضت الكنيسة البيزنطية قانعة هذه العلاقة الوطيدة بينها وبين الدولة ، وكانت هذه الوحدة عاملا رئيسيا ومباشرا ، ضمن عوامل أخرى عديدة ، من أسباب امتداد العمر بالامبراطورية البيزنطية . ولم يحدث طوال سبعة قرون أن رفعت الكنيسة رأسها معارضة الامبراطور الا فى النذر اليسير . غير أن الأمور تبدلت من بعد على استحياء ، ذلك أن الكنيسة لما آنست من جانب الدولة ضعفا متمثلا فى شخص الامبراطور وأجهزته الادارية والعسكرية ، حاولت أن تزيح عن نفسها ولو قليلا ثقل الوطأة الطويلة ، وزاد عنادها فى أواخر القرن الرابع عشر والنصف الأول من القرن الخامس عشر ، عندما راح الإباطرة فى محاولة يائسة لانقاذ الامبراطورية ، يتخلون عن معتقدهم الأرثوذكسى وءدائهم التقليدى لكنيسة روما ، ويرتمى بعضهم فى أحضان البابوية معلنا اعتناقه الكاثوليكية .

وبسللوس يبدو فى تاريخه حريصا على التأكيد على هذه العلاقة الطويلة لوطيدة بين الدولة والكنيسة فى موقفين متتاليين له ازاء أسقف القسطنطينية المتعالى ميخائيل كرولاوريوس ، الذى ذهب بشهرة ذائعة فى التاريخ بسبب الشقاق الأعظم الذى حدث فى عهده بين كنيسة روما والقسطنطينية عام ١٠٥٤ ابن حكم قسطنطين التاسع . ذلك انه ما أن اعتلى ميخائيل السادس العرش عام ١٠٥٦ وجمع حوله مستشاريه وعلى رأسهم بسللوس لبحث أمر الاضطرابات التى أثارها اسحق كومنينوس فى آسيا الصغرى ، حتى كانت أولى المقترحات

انتى طرحها بسللوس على الامبراطور لاقرار الأمور وتقوية قبضته ، التوصل الى حل معين مع اسقف العاصمة الذى كان مغاضبا لميخائيل ، وبرر بسللوس ذلك بأن « الاسقف يمثل الآن فى هذه الظروف مركز قوة لا يستهان بها (١) » ، فلما أهمل ميخائيل هذا الاقتراح بل ورفضه تماما ، كان هذا كما يقول بسللوس « كافيا للاتاحة به (٢) » .

ويبدو أن بسللوس كان مصمما على التخلص من كرولاوريوس لغطرسته فى مواجهة الأباطرة ، وربما خشية منه على سلطانه . ولا شك أن مرد هذه الخيلاء من جانب الاسقف يعود الى شعوره بوهن السلطة الامبراطورية ، ويدل على ذلك ما يذكره مؤرخنا عن « الصفاقة والصلف » الذى كان يتحدث بهما كرولاوريوس الى الامبراطور اسحق كومننوس . وقد تطورت الأمور بينهما الى حد محاولة عزل انطيريك ونفيه عام ١٠٥٨ وتعيين قسطنطين ليخودس ، صديق بسللوس الحميم خلفا لكرولاوريوس . ويعلق مؤرخنا على ذلك بقوله : « انه لن يروى قصة هذا الصراع بين الرجلين لأنها ملحمة طويلة » ويضيف قائلا : « لو أن احدا حاول جاهدا أن يستقصى ذلك الخلاف بينهما لأدان أحدهما لفتح باب الصراع وأدان الثانى للنهاية التى انتهى اليها (٣) » .

والحقيقة أن اسحق كان يشعر بالامتنان تجاه بطيريك القسطنطينية لموقفه المؤيد له أثناء ثورته ضد ميخائيل السادس وعند اعتلائه العرش ، وفى مقابل ذلك تغاضى الامبراطور عن بعض حقوقه التقليدية تجاه الكنيسة ، فانتهز كرولاوريوس الفرصة لزيادة نفوذه وسلطانه ، وتناول على الامبراطور ، « وائتعل فى الوقت ذاته الحذاء الأرجوانى الطويل » الذى كان يعتبر قصرا على الأباطرة وحدهم ، مما أثار بالتالى غيظ اسحق وحنقه . فأصدر أوامره فى نوفمبر ١٠٥٨ بالقبض عليه ونفيه . غير أن الاسقف رفض الامتثال لأوامر الامبراطور ، وبناء على ذلك أوعز اسحق الى بسللوس باقامة الدعوى ضده . وسرعان ما دبح بسللوس مجموعة من الاتهامات ضد الاسقف تعد وثيقة على جانب كبير من الاهمية ، تنعت كرولاوريوس بالهرطقة والخيانة مدعمة بالدلة التفصيلية . الا أن بطيريك العاصمة مات قبل أن تجرى محاكمته سنة ١٠٥٩ (٤) .

Ibid. VII, 10

(١)

Ibid. 11.

(٢)

Ibid. 65.

(٣)

Fourteen byzantine rulers, p. 315, n. I.

(٤)

ومن الجدير بالذكر ان مثل هذه العلاقة الوطيدة بين الدولة والكنيسة التى جرى التقليد بها فى الامبراطورية البيزنطية ، بحيث امست الكنيسة دائرة من دوائر الحكومة ، والأسقف موظفا كبيرا لدى الامبراطور فى هذه الدائرة ، هذه السمة لم توجد فى الغرب الأوروبى طيلة العصور الوسطى ، بل على العكس من ذلك نشب صراع رهيب بين البابوية والامبراطورية حول السيادة العالمية ، وقدمت الادلة من فقهاء كل من الطرفين ، بل وزيفت النظريات لخدمة أغراض كل طرف منهما ، وقد ذهب الاذلال الذى منيت به الامبراطورية سنة ١٠٧٦ فى احدى جولات الصراع بينهما بشهرة واسعة فى التاريخ حيث عرب باذلال كانوسا ، وان كان الأمر قد ظل سادرا طيلة قرنين تالين (١) .

حقيقة أخرى يؤكدھا بسللوس فى كتابه ھى اعتزاز البيزنطيين برومانيتھم ، فالبيزنطيون الاباطرة والناس يعتبرون انفسھم امتدادا طبيعيا للرومان الاسلاف ، فسلسله الاباطرة الرومان لم تنقطع منذ أوكتافيانوس أوغسطس حتى قسطنطين الحادى عشر ، ولم يكن الانتقال من روما الى القسطنطينية فى نظرھم الا تغيرا للعاصمة الامبراطورية فقط . وقد قامت النظرية السياسية الرومانية التى تبنتھا الامبراطورية البيزنطية على فكرة الامبراطورية الواحدة ، ورغم ضياع النصف الغربى من الامبراطورية فى القرن الخامس ، واستيلاء الجرمان على روما عام ٤٧٦ ، الا ان اباطرة القسطنطينية لم يعترفوا مطلقا من الناحية النظرية بضياع السيادة الرومانية على هذه الاقاليم ، ولم تعترف بيزنطة بشارلمان « امبراطورا رومانيا » كما ارادته البابوية فى القرن التاسع ، ولا بأوتو

(١) للمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع الطويل بين البابوية والامبراطورية انظر :

Tierney, the crisis of church and state, 1050 — 1300, with selected documents, Barraclough, the medieval papacy, pp. 13 — 138.

Thompson & Johnson, an introduction to medieval Europe, 300-1500

Ullmann, a history of the papacy in the middle Ages, pp. 4 — 200

Corbett, the Papacy, pp. 15—41, 95—108.

Southern, the making of the Middle Ages, pp. 115—149

Hughes, a history of the church, pp. 209 — 238.

والامبراطورية الرومانية المقدسة من بعد (١) ، معتبرة نفسها الامبراطورية الرومانية الوحيدة الحقّة . وقد كتب الامبراطور الالماني فردريك الأول بارباروسا في سنة ١٠٧٦ رسالة الى الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس تنظر احتقارا بمناسبة الهزيمة التى منى بها مانويل فى آسيا الصغرى ، يصسه فيها بأنه « ملك اليونان » Rex Grecorum ويخلع على نفسه لقب « الامبراطور الرومانى » ويعلن وراثته للباطرة الرومان وادعاء السيطرة على « المملكة اليونانية » Regnum Greciaie يعنى الامبراطورية البيزنطية . لكن هذا كله لم يفقد البيزنطى اعتزازه برومانيته باعتباره الوريث الشرعى او بتعبير آخر الامتداد الطبيعى التقليدى للرومان .

وبسللوس يعبر عن ايمانه العميق بذلك فى أكثر من موضع فى تاريخه ، فهو يبدى أسفه وحسرتة على الايام الخوالى للامبراطورية عندما كان البحر المتوسط بحيرة رومانية (٢) « أما الآن فلکم يملكنى الغم والضيق ، ذلك أن احدا لم يته بالرومان عجبا مثلى ، ولا حبا لوطنه كنفسى (٣) » ويذكر أن قسطنطين التاسع كان يعهد اليه بكتابة الرسائل الهامة الى حكام الدول الأجنبية لثقتة فيه ، « ولما يعلمه عنى من حب للوطن واعتزاز برومانيتى (٤) » وتظهر هذه النعرة بصورة واضحة فى التعبير الذى

(١) كان هناك اعتراف واهن من جانب الامبراطور البيزنطى ميخائيل رانجابه سنة ٨١٢ لظروف سياسية وعسكرية سيئة احاطت به ، ولكنه لم يكن له أى تأثير على التقليد السياسى البيزنطى فيما بعد ، ولم يعترف به خلفاؤه . للمزيد من التفاصيل عن امبراطورية شارلمان والامبراطورية الرومانية المقدسة وعلاقتها بالامبراطورية البيزنطية وموقف هذه منهما ، انظر :

Einhard, the life of —

Charlemagne pp. 80 — 81.

Bryce; the holy roman empire.

Stephenson, mediaeval history, p. 153.

وانظر أيضا دكتور جوزيف نسيم يوسف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ص ١٨٣ ، وكذلك ديفز : شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العريفى ص ١٧٢ — ١٧٨ .

Chron. VI, 153 — 154

(٢)

Ibid. 154

(٣)

Ibid. 190

(٤)

يطلقه بسللوس في صفحات كتابه على اعداء الدولة في الشرق والغرب على السواء ، فهو يستخدم التعبير اليونانى — الرومانى الذى جرى استخدامه في العصور القديمة للحط من شأن الشعوب الخارجة عن نطاق اليونان الاقدمين والرومان من بعدهم ، حضارة وسيادة ، أعنى كلمة « البرابرة » (١) .

ورغم الثقافة انعريضة التى أدركها بسللوس وتعدد قراءاته ودراساته في مختلف فروع المعرفة الانسانية ، ورغم تهكمه من هذا « الهوس » الدينى الذى أصاب البيزنطيين في كل شئون حياتهم ، والذي عبر عنه جريجورى اسقف نيسا Gregorius Nyssa في آسيا الصغرى في القرن الرابع الميلادى (٢) ، الا ان بسللوس كبيزنطى يعيش هذا المناخ لم تستطع ثقافته العريضة أن تمحو من نفسه ما أصبح في بيزنطة ضرورة حياة . ومن ثم نراه في تاريخه يفعل ما اطمانت اليه أفئدة الجموع ، فهو يعزو الكثير من الأحداث الى الغيبيات ويؤمن بالمعجزات ويدعم بها في بعض الاحيان رواياته التاريخية . ولعل هذا مما ينتقص شيئا من قيمة كتابته في هذه المواضع ، وهو يقول : « من عادتي ان انسب الى العناية

Ibid. 1, 32, III, 9—10; IV, 40—41 VI 75, 90—91, 95, 153. (١)

VII, 45, 63, 67—70; VII, Eudocia, 6; Romanus IV, 4, II.

(٢) شهد القرن الرابع جدلا فكريا رهيبا بين آباء الكنيسة حول المسيح وظل هذا الجدل الدينى سمة الفكر البيزنطى طوال تاريخ الامبراطورية ، حتى أصبحت « المناقشات البيزنطية » تعبيرا عن كل جدل فكرى عقيم ، خاصة وقد شارك في هذا الصراع كل الطوائف دون تمييز ، من الامبراطورية الى رجل الشارع . وقد وصف اللاهوتى الكبادوكى الشهير جريجورى اسقف نيسا هذه الحال في القرن الرابع في القسطنطينية بقوله : « لقد امتلأ كل شئ بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم ، وازدحمت بهم الطرقات والاسواق والأزقة فاذا ما سألت عما يجب ان ادفنه ثمنا لشئ ، فلسفوا الى الاجابة حول المولود والمخلوق ، واذا ما رغبت في الوقوف على ثمن الخبز ، أجابنى البائع بأن الآب أعظم من الابن ، واذا ما بحثت عما اذا كان حماى قد أعد ، جاعتنى الاجابة تقول ، ان الابن خلق من العدم » . ولقد ثار الجيش ذات مرة وطلب السى الامبراطور قسطنطين الرابع ٦٦٨ — ٦٨٠) أن يشرك معه في الحكم أخويه هرقل وتيريموس ، ولما سألهم الامبراطور لم يريدون ذلك ؟ أجابوه : « لأننا نؤمن بالثالوث فلنتزوج اباطرة ثلاثة » وقد ظلت هذه الصورة ديدن البيزنطيين طيلة عصر الامبراطورية البيزنطية .

الالهية التحكم في الاحداث الكبرى ، أو بالاحرى فأنا اعتبر كل ما يحدث صادرا عن السماء (١) « وهو يطبق ذلك على الامبراطور ميخائيل الخامس الذى اعتلى العرش بتدبير الله « الذى يعلم علم اليقين أن هذا القيصر سوف يقود أسرته الى حتفها » ويتحدث عن دور السماء فيما وقع لأسرة ميخائيل الخامس (٢) ، وما كان من أمر انقاذ جيوش قسطنطين العاشر بمعجزة من السماء ويشبه هذه المعجزة بما حدث لموسى النبى ويقول : « لو قدر لى أن أنظم قصيدة فى امتداح قسطنطين وليس تاريخا دقيقا ، لوجدت فى هذه المعجزة مادة كافية لمديحى تفوق كل تصور (٣) » .

بل أن الاسطورة الذائعة التى احاطت بايقونة العذراء على امتداد التاريخ البيزنطى ، وجدت لها صدى فى تاريخ بسللوس ، فقد جرى ايمان الجموع بوضع ايقونة العذراء فوق أى اعتبار للخطط العسكرية أو المهارات القتالية أو الاستعدادات اللازمة للحرب . فهى باعتبارها حامية القسطنطينية انتذت المدينة من السقوط فى أيدي الفرس والآفار سنة ٦٢٦ بينما كانت جيوش هرقل خارج المدينة ، فقد ألقت الرعب والفرع فى قلوب هؤلاء وأولئك نور ظهورها على أسوار القسطنطينية . وتناسى الناس مهارة هرقل العسكرية وخطته الحربية فى حربه الطويلة ضد الفرس ، وعزوا نصره عليهم الى حمله ايقونة العذراء معه . ويكرر ميخائيل بسللوس نفس الصورة بحرفيتها عند حديثه عن الحملة التى قادها الامبراطور رومانوس الثالث سنة ١٠٣٠ حيث لقى هزيمة مروعة على يد المسلمين بالقرب من حلب ، وتفرق عنه جنوده ولم يستطع أن يجمع شتات نفسه وفلول جيشه الا بعد العثور على ايقونة العذراء (٤) » .

Chron. IV, 30; VII, 98.

(١)

Ibid. V, 24.

(٢)

Ibid. VII, Const. X, 23 — 24.

(٣)

(٤) يصف بسللوس فى مشهد روائى رائع ما كان من أمر العثور على ايقونة العذراء وتأثيرها على نفس الامبراطور وجيشه ، فبعد تأكد الجنود الفارين من بقاء — الامبراطور حيا يقول بسللوس (وأهم من ذلك أن واحدا من انجند قدم بايقونة العذراء ، تلك الصورة التى اعتاد الاباطرة الرومان حملها معهم فى كل حملاتهم كدليل لهم وحارس يقيهم شر أعدائهم ، وكانت هى الوحيدة

ولقد صاغ بسللوس أحداث تاريخه بأسلوب جزل فخيم ، يصعب على الترجمة كما يقول سوتر ، وإن كان يتميز في الوقت ذاته بسخرية لاذعة خاصة عندما يتصل الأمر بنقده لتصرفات هذا الحاكم أو ذاك . مما أضفى على الكتاب طابعا مميزا لا يبعث في نفس قارئه أى ملل أو سأم . ولا يعيب انسياب الأسلوب واتساق العرض ، إلا ما كان يقدم عليه بسللوس في كثير من المواضع من قطع سياق الحديث عن الوقائع التاريخية ليتناول موضوعات شخصية بحتة تتصل به نفسه أو تتعلق بأمر تدور خلف أستار القصر الإمبراطوري لا صلة لها بما يرويه ، وهذا ظاهر بصفة خاصة ابتداء من الكتاب الرابع أى منذ أصبح قريبا من القصر (١) .

ومن أطرف المواقف الساخرة التي يقصها بسللوس ، ذلك المشهد الذي يسف فيه صورة الإمبراطور قسطنطين التاسع وقد جلس هو ومعهشوقته سكرنا Sclerena وزوجه الإمبراطورة زوى في المقدمة ، ثم السناتو وقد اصطف نيشاهد هذا التناغم الشاذ وقد احمرت وجوههم خجلا بينما راح بعضهم يتحدث همسا ، وعلى الرغم من الحيرة والارتباك الذي تملك أعضائه ، إلا أنهم جميعا كانوا يذكرون هذا « دائما كما لو كان شيئا قد هبط عليهم من السماء » (٢) . ويعلق بسللوس على ذلك بقوله : « ان زوى لم تعد تشعر بالغيرة من منافستها مطلقا ، فزمان الغيرة فيها قد مضى ، وزمان الجنس عندها ونى !! » (٣) ..

التي لم يستول عليها الأعداء عند مهاجمتهم لخيمة الإمبراطور . وعندما وقع بصر الإمبراطور عليها تنفس الصعداء وأطبق عليها بكتايديه ، وليس بمقدورى أن أجد الكلمات التي يمكن أن أعبر بها عن كيفية احتضان الإمبراطور لها وكيف بللها بدموعه ، وكيف راح ينشد رحمتها وعونها كما حدث في الماضي وأنقذت قوى الرومان من أزمات محققة . ومنذ تلك اللحظة امتلاء قلبه بكل الشجاعة (Chron. III, 10 — 11

(١) Chron. IV, 12, 25, 28; V, 9—10, 19, 34, 35, 42; VI, 22, 28, 36
— 46, 157 — 161; VI, Theod. 10 — 12.

157 — 161; VI, Theod. 10 — 12

Ibid. VI, 58

(٢)

Ibid. 62, 151

(٣)

كما أن بسللوس كان ناقدا صارما ومحقا في كثير من المواقف فيما يتعلق بسياسات الأباطرة المختلفين الذين عاصروهم ، بحيث لم يكذب ينجو من قلمه الا القليل ، فهو يصف باسل الثانى الذى ذهب بشهرة ذائعة فى التاريخ باسم (سفاح البلغار) Bulgaroctonus بقوله : « انه لعين الحق أن يقال ان السمعة التى اكتسبها باسل طيلة عهده كحاكم ، قامت على الرعب أكثر منها على النولاء ، وكلما تقدم به العمر وازدادت مداركه وكثرت خبراته قل اعتماده على غيره من أولى الالباب . . . ولم يلق بالا على الاطلاق لرجال عهده المثقفين ، بل على العكس كان يكن للطبقة المتعلمة الاحتقار كله ويزدريهم (١) ويعيب على قسطنطين الثامن خموله ودعته وانغماسه فى اللهو والعبث ، ذلك انه « أهمل شئون الامبراطورية وصرف كل اهتمامه الى الشطرنج والنرد والمسرح ، وكان متحمسا لكل ذلك الى الحد الذى لم يكن يسمح لأحد من السفراء أن يقطع عليه بهجته وانشغاله بهذه الالعاب حتى لو اضطر الى الانتظار طويلا (٢) » . أما رومانوس الثالث فكان مولعا بالانطونيين فكرا وبماركوس أوريليوس كفيلسوف ، ومن ثم صرف عنايته الى ناحيتين هما دراسة الأدب وعلوم الحرب ، وبينما كان فى الأخيرة جاهلا تماما ، فانه فى الأولى كان بعيدا عن المعرفة (٣) » وعندما حاول رومانوس جاهدا أن يوسع حدود دولته ، ثم ضاعت من بعد جهوده سدى ، وسماه بسللوس بأنه « كان يريد أن يتشبه بالأباطرة السابقين أمثال تراجان وهادريان وربما أوغسطس وقيصر ، بل ربما قبل هؤلاء جميعا الاسكندر المقدوني فى حروبهم وأعمالهم السلمية فى آن واحد ، ولكنه كان كمن يبني قلاعاً فى الهواء (٤) » .

وقد قدمنا من قبل انتقاداته المبررة للاسراف والبذخ اللذين اتسم بهما عهد قسطنطين التاسع وزوى وثيودورا بصورة تفوق الوصف ، « . . . كما لو كان باسل الثانى قد ملأ الخزائنة بالأموال لتنفق على أيديهم دون وعى . . . »

Ibid. 1, 29

(١)

Ibid. II. 9.

(٢)

Ibid. III. 2.

(٣)

Ibid. 8. 4.

(٤)

ان تجمع السحب في تلك الايام كان نذيرا بهذا الطوفان الذي تغرق فيه الآن . . . (١) وقد لاحظت دائما ان الاباطرة قبل اسحق « كومنينوس » قد ارهقوا الخزانة لصالح أهوائهم من أمرها عسرا ، فالدخل العام لم ينفق لاعادة تنظيم القوات العسكرية بل في المظاهر البراقة . . . وتبددت الثروة الامبراطورية في وجوه ثلاثة ، اولها فيما يدخل السرور على قلوبهم ، والثاني لتزيين ابنياتهم الفخمة ، والثالث لجعل أولئك الكسالى بطبيعتهم يعيشون حياة رغيدة كلها الرفاهية ، بينما ضيق على الجيش وعومل معاملة غير كريمة (٢) وهو يصور الوهدة التي تردت فيها الامبراطورية عندما تقلد أمرها اسحق كومنينوس تصويرا رائعا بقوله : « يمكننا تشبيهها بهيكل ضخّم ذى رؤوس عدة ورقبة غليظة قصيرة قبيحة ، وأياد تفوق الحصر وأقدام لا عد لها ، تفرحت معدته وتورمت منه بعض أعضائه ، وتناثرت أشلاء بعضه الآخر . انتفخ هنا بمرض الاستسقاء ، وسقم هناك بفعل السل . والآن يحاول اسحق علاج كل ذلك بجراحة عامة (٣) » ،

أما فيما يتعلق برومانوس الرابع فموقف بسللوس منه ليس بخاف على أحد ، وان كان مؤرخنا قد تجاوز معه حدود الموضوعية ، ومع « اعجابه الشديد » بميخائيل السابع تلميذه ، إلا أنه لم يستطع أن يمنع قلمه من التعبير بصدق عما انحطت اليه الامبراطورية في سبعينيات القرن الحادى عشر عندما ذكر « ان الامور قد وصلت في الشرق والغرب الى الحضيض (٤) » .

بهذا الأسلوب التهكمى الساخر في الكتابة كان بسللوس أنموذجا احتذاه بعض الكتاب الذين اتوا بعده في تقديم الموضوعات الجادة في صورة هزلية ، بل أن أمور العقيدة لم تسلم - على النحو الذى رأينا - من هذا الاتجاه . ونجد راح بسللوس يهاجم أحد الرهبان لسكره الذى لا يكاد يفيق منه مما جعله أضحوكة أثناء القداس (٥) . وهكذا نجد أن بسللوس المؤرخ لم يكن

Ibid. VI, 8 — 9

(١)

Ibid. VII, 59.

(٢)

Ibid. 51

(٣)

Ibid. VII, Michael VII, 7.

(٤)

Baynes & Moss, op cit. p. 250

(٥)

يقول مقدرة عن بسللوس البياني والفيلسوف ، ولا ذكاء عن بسللوس السياسى .
ومما لا شك فيه أن الفضل يعود اليه في الدرجة الأولى في احياء الآداب
والعلوم الانسانية في الامبراطورية البيزنطية في القرن الحادى عشر ، على الرغم
من أنه لا يمكن استثناءه من بين الذين خلطوا بين التقوى والورع وبين الشعوذة
والخرافات (١) . ولكن الجهود التى بذلها بسللوس من خلال اعادة تنظيم
الجامعة كان لها كبير الأثر في خلق حالة طيبة من الأنشطة الثقافية خلال
القرون التى تبقت من عمر الامبراطورية على عهد اسرتى كومنين وأنجلوس ،
بحيث أصبح التحمس للآداب الكلاسيكية هو السمة الواضحة آنذاك ،
وأصبحت محاكاة الكتاب والأدباء والفلاسفة الاغريق أمراً شائعاً (٢) . وكان
بسللوس دون ريب رائداً في هذا المجال ، وإن كان هذا قد ادى بالتالى الى
قلة ان لم يكن انعدام المعرفة باللاتينية وآدابها عند معظم كتاب هذه
الفترة في بيزنطة ، الى الحد الذى كان ممكناً فيه أن يخلط بسللوس بين قيصر
وشيثرون (٣) . ويعود هذا في الواقع الى التباعد السياسى والفكرى
والمعتدى الذى كان حادثاً لزمان طويل ، يعود الى القرن الرابع ، بين العالمين
انيونانى واللاتينى .

والحقيقة أن أحداً لا يستطيع في النهاية أن ينكر ما كان عليه بسللوس
من دقة الملاحظة وقوة الذاكرة وحصافة الرأى وبلاغت الأسلوب وسعة الثقافة
« لقد كان رأسه — كما قيل — يحتوى على عيني فنان » .



C.M.H. IV, 2, p. 297

(١)

Vasiliev, op. cit., 1, pp. 487 — 488.

(٢)

Ware, the orthodox church, p. 54.

(٣)

« المراجع »

— PSELLUS, (M), Chronographia trans. by E.R.A. Sewter, under the title : Fourteen, Byzantine Rulers, Penguin Books 1966.

— Academy of Sciences of the U.S.S.R. Institute of history :

A short history of the U.S.S.R. Trans. from Russian by George H. Hanna. Moscow 1965.

— Atiya, (A.S.), A History of Eastern christianity, London 1968.

— Barraclough, (G), — The Medieval papacy, London 1975.

— The Medieval Empire : Idea and Reality.

وقد قام دكتور جوزيف نسيم بترجمة هذا البحث الاخير وقدم له وعلق عليه ونشره في كتابه : « الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى » .

— Baynes (N.) & Moss (h. st. I.b.),

Byzantium : an introduction to East Roman civilization. Oxford 1969.

— Brook (ch), Europe in the central middle Ages, 962 — 1154. London 1969.

— Bryce (J.A.), The holy Roman Empire, London 1950.

— Cambridge Ancient History, ed. by J.B. Bury; S.A. Cook and F.E. Adcock, 12 vols. Cambridge 1936.

— Cambridge Medieval History, planned by J. B. Bury, in 8 vols. Cambridge 1964.

— Cantor, (N), Medieval history, the life and death of a civilization, New York 1963.

- Corbett (J), the papacy, Toronto 1956.
- Creed (J.M.), Egypt and the christian church (Legacy of Egypt, Oxford 1947).
- Einhard, the life of Charlemagne, trans. By lewis throp, under the title : two lives of charlemagne by Einhard and notker the stammerer) Penguin books 1969.
- Hefele (C.J.), History of the councils of the church, trans. from the German in 5 vols. and ed. by W. R. Clark, Edinburgh 1972.
- Hughes PH.), A history of the Church, vol. 2, London 1948.
- Hussey (J.M.), The Byzantine world, London 1967.
- وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية وقدم له وعلق عليه الدكتور رأفت عبد الحميد ، القاهرة ١٩٧٧
- Knowles (D.), The evolution of medieval thought. Hong Kong 1976.
- Neander (A.), Lectures on the history of Christian dogmas, 2 vols, London 1882.
- Nicene and post Nicene fathers of the christian church, ed, by Philip Shalff & Henry Wace in 14 vols. Michigan 1891 Sq.
- Percival (H.R.), The seven ecumenical councils, (Nicene Fathers) Vol. XIV 2 ser. Michigan 1899.
- Runciman (S), A history of the crusades, 3 Vols London 1951.
- Southern (R. W.), The making of the middle Ages, London 1968.

— Stephenson (C.), Mediaeval history. New York 1962.

— Thompson (J.W.) & Johnson (E.N.),

An introduction to medieval Europe 300 — 1500, New York 1965.

— Tierney (B.), The crisis of church and state 1050 — 1300, New Gersy 1964.

— Ullmann (W.), A short history of the papacy in the Middle Ages, London 1974.

— Vasiliev, (A.A.), A history of the Byzantine Empire, 2 vols, Madison and Milwauke 1964.

— Ware (T.), The Orthodox Church. Penguin Books 1967.

— أسد رستم (دكتور) حرب في الكنائس ، بيروت ١٩٥٨

— ديفز (ر. ه. س.) : شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى
القاهرة ١٩٥٩

— موسى (ه. م.) ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز توفيق
جناويد . القاهرة ١٩٦٧

